الدكتور روجيه غارودي

الوجودية

فلسفة الاستعمار

ترجمة

محمد عيتاني

منشورات عمد بيروت

obeikandl.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر

obeikandl.com

ـ مقدمة ـ

•

الوجودية فلسفة بورجوازية

سوف نبين بادئ ذي بدء ، في صدد مثال ملموس وهو نظرية المعرفة عند ـ ميرلوبونتي ـ كيف ان الفلسفة تابعة للنشاط العملي الاجتماعي لطبقة معينة .

ومن اجل ذلك ، فمن الضروري ان تقع هذه الفلسفة (اي الفلسفة الوجودية) بما يجاز في موضعها من خط سير الفلسفة البورجوازية .

اولاً : مرحلة صعود البورجوازية ، التي يعبر عنها بادئ بدء ، عند مفكري النهضة وعند ديكارت ، وقد ازدهرت مع المذهب التجريبي الانكليزي الذي يهيمن

عليه فكر (لوك)؛ مع ماذيي القرن الثامن عشر الفرنسيين، الملتفين حول (ديدرو) مع مثالية - هيغل - الموضوعية في المانيا.

والخاصة المشتركة بين هذه الفلسفات (رغم كونها ذات اتجاهات مختلفة جداً) هي انها تعبر عن مفهوم للعالم، وأن هذا المفهوم للعالم، يرتكز على نتائج العلوم التي يعممها، وانه متفائل (متفوق، متغلب، يتجه نحو الظفر)، إنه يجد قدرة العلم والتقدم اللا محدود للانسان.

ذلك لان الطبقة البورجوازية، كانت تصعد للاستيلاء على الحكم، وكانت واثقة بالمستقبل. وكان التاريخ العلمي الموضوعي، لا يمكن إلا ان يبين ضرورة استيلاء البورجوازية على الحكم، وكان كل نقد علمي يخدمها في كشف تناقضات النظام الآخذ في الموت.

ومن أجل مهاجمة المفهوم الاقطاعي عن الحق الالهي

اتخذت البورجوازية (المادية) سلاحاً لها . وبدلاً من ان تلتمس ما وراء الحقيقة ، مبدأ لاهوتياً يبررها ، جعلت تطالب بالاكتفاء بالحقيقة الواقعية العادية ، دون أية اضافة خارجية .

فلو جرى فحص الوقائع في ذاتها ، دون ان تلتمس لها مبررات سماوية ، فماذا تكشف حركة التاريخ ؟

ان قوانين الواقع ، ان « العلاقات المترتبة على طبيعة الاشياء ، والنابعة من طبيعة الاشياء » كما كان يقول مونتسكيو ، كانت تضجر تناقضات المجتمع الاقطاعي ، القائم على الحكم المطلق والذي ما كان يستطيع تبرير نفسه ، الا بوساطة أوهام سحرية أسرارية لاهوتية ، من طراز تلك التي عرضها بوسويه ، نظري النظام الملكي المطلق ، في كتابه : سياسة مستمدة من الكتاب المقدس » .

غير ان سير حوادث التاريخ ، كما يحلله مثلاً

ـ بارناف ـ قبيل الثورة الفرنسية الكبرى كان يبين ان المستقبل للبورجوازية التي تملك ، بالاضافة الى الالات ، والتقنيات الجديدة ، وقوى الاقتصاد الحاسمة ، وبمثابة تتويج لهذا كله ، اكثر القوى الفكرى فعالية حاسمة .

اذن ، فالبورجوازية في عهد صباها لا تخاف الواقع مطلقاً وفلاسفتها الاكثر تمثيلاً لها ، أمثال (ديدرو) ، ودولباخ ، وهيلفيسيوس . هم ماديون على نحو عميق وقد كان عمل مفكريها نشيداً يمجد العلم والتقدم والنهضة الآلية الصاعدة .

وبعد مضي قرن من قيامها بثورتها ، أصبحت هذه الطبقة نفسها ، الشائخة المتداعية . أصبحت عاجزة عن حل القضايا التي يطرحها انتصارها نفسه .

ان التقنية الحديثة ، بنت العلم ، قد أنمت الانتاج الى درجة من السرعة الجامحة ؛ ولكن الانتاج بقي ملكية

خاصة لقبضة من الرأسماليين ، المغفلين المسهمين ، عاجزة عن توزيع الثروات المنتجة ، وفي هذه الشروط ؛ بدت انها تحقق شقاء الانسان بدلا من عظمته :

وعندئذ غير الفكر البورجوازي وجهته في جميع الميادين : ففي الاقتصاد السياسي ؛ ساد التفاؤل خلال مرحلة فتوة الرأسمالية . فمن (آدم سميث) الى (ريكاردو) ، يعرض هذا الاقتصاد السياسي خصائص علمية ، ذلك لان الرأسمالية لم تكن بعد قد كشفت جميع النقائص التي يجدر بها اخفاؤها ، ولم تكن بعد قد كشفت تناقضاتها الداخلية ، ولا يمكن لدراسة علمية ، الا ان تتنبأ بخراب النظام الاقطاعي وانتصار البورجوازية الصناعية .

ولكن ما ان ظهرت اولى الازمات الدورية ورأى (سيسموندي) فيها انها نتيجة لسريان قوانين رأسمالية فاذا لم يحرف الواقع ، نهض الاقتصاد السياسي ليدافع ضد النظام الرأسمالي .

وهـذا النظام سوف يقتضي التزوير لكي يستر جراحه، ولهذا السبب توقف الازدهار الرائع للاقتصاد السياسي البورجوازي ، بعد ريكاردو .

ولكن حين توقف ريكاردو عن التأليف، بـدأ ماركس في المكتبة الملكية بلندن صياغة كتاب (رأس المال) ، وذلك هو التنادي التـاريخي لمشعل الحقيقة .

لقد انتقل العلم من يد الى يد اخرى ، ولم يعد الفكر يستطيع ان يظل موضوعياً ، يعني ان يعكس الواقع بأمانة دون ان يشكل ذلك خطراً على النظام القائم . ولكن البروليتاريا ؛ بدأت صعودها التاريخي والحقيقة تخدمها .

وان تحليلا دقيقاً مضبوطاً لتناقضات الداخلية الرأسمالية والقوانين تطورها يثبت الانهيار المحتـوم للنظام الرأسمالي ، وضرورة نظام جديد .

لقد انقضى ، بالنسبة الى البورجوازية ، ذلك العهد الذي كان يستطيع فيه فيلسوف مثل (كوندورسيه) ان يشيد فلسفة للتاريخ تؤلف فيها سيطرة البورجوازية نقطة الاوج النهائية، وحيث كان هيغل يعتبر هذه السيطرة بمثابة سيطرة للعقل الاسمى .

و لقد انقضى أيضاً بالنسبة الى البورجوازية ، العهد الذي كانت تتمنى فيه لفلسفتها انتشارا واسعا .وحيث كان ديكارت يكتبها باللغة الشعبية ليجعلها في متناول الجميع ، وحيث عرفت الموسوعة الفرنسية (الانسيكلوبيديا) انتشاراً عظيما هائلًا بالنسبة الى ذلك الزمن ، ذلك لأن الفلسفة في ذلك العهد ، كانت لها بالنسبة الى طبقة صاعدة وظيفة اجتماعية ، كان لها دور اجتماعي .

لقد كانت الفلسفة تلقي ضوءا على الافاق التاريخية لهذه الطبقة . انها كانت تقدم اساساً علمياً لصعودها . ولسوف يكون لها، من بعد، مثل هذه الأهمية بالنسبة

الى الطبقة الجديدة الصاعدة ؛ الطبقة العاملة ، في اللحظة نفسها التي تقف فيها الفلسفة البورجوازية « بمنأى ومعزل » عن الناس العاديين ، ولا تجد مانعا من نزعة باطنيـــة معينة .

ثانياً

والمرحلة الثانية من مراحل الفلسفة البورجوازية تبدأ حوالي سنة ١٨٤٨ . فالطبقة العاملة حتى بعد سحقها عقب ثورة حزيران والمغلوبة موقتاً من قبل جميع القوى الاوروبية المناهضة للثـورة ، قد كشفت ان سيطرة البورجوازية ليست خالدة .

فثمة طبقة اخرى تطل من أفق التاريخ . ومنذ ذلك الحين سـوف يكون الافق التـاريخي للبورجوازية محدودا . والسيطرة الطبقية للبورجوازية قد حكم عليها التاريخ ، الى مهلة طويلة ولا شك ، ولكنها قد حكم عليها على كل حال .

وعلم التاريخ الموضوعي العلمي ، سوف يشهد منذ ذلك الحين ، ضد البورجوازية ، وسوف يثبت ضرورة

زوال النظام الرأسمالي : ومنذ ذلك الحين سوف يجهد المؤرخون العاملون في خدمة البورجوازية لطمس الحقيقة الواقعية للطبقات وصراعها ، تلك التي كشف عنها أغسطين تيرى ، وتييرس ومينيو .

وليس التاريخ العلمي وحده هو الذي يضع موضع البحث سيطرة البورجوازية . وانما هو العلم نفسه .

ان قوانين التحول في الفيزياء ، وقوانين التطور في البيولوجيا تنادي بنهاية الابدي في وجه طبقة تريد تخليد سيطرتها .

ان البورجوازية تفقد ثقتها بالعلم وتجهد منذ ذلك الحين لوضع حد لمدلول العلوم ومفعوله .

ان مذهب أوغست كونت الوضعي يعبر عن هذا الرعب ازاء الواقع وإزاء العلم الذي يعبر عن هذا الواقع . وبعد ذلك الحين ، تعين البورجوازية للفلسفة مهمة هي ان تبين بأن العلم لا يعرفنا الى جوهر الاشياء فليس له ـ في زعمها ـ سوى مدلول تكنيكي .

وتدخل الفلسفة في عهد أزمة ، وهذه الازمة تقدم من حيث جوهرها في هذا الانقطاع بين الفكر

الفلسفي ، وتطور الواقع الاجتماعي . ولم تعد البورجوازية تستطيع ان تسمح للفلسفة بالتعبير عن حركة الواقعية ، وذلك لان هذه الحركة تسير بالطبقة البورجوازية نحو انهيارها :

وهكذا اصبحت اللاأدرية ضرورية ، ولسوف تعبر عن ذاتها في شكل المذهب الوضعي ، والمذهب الكانتي الجديد ، وجميع المذاهب التى تفسح للعلم موضعاً ، على ان يبقى في هذا النطاق الانهزامي .

وللفيلسوف مهمة هي ان يكون حارس حدود وعليه ان يسهر لضبط العلم في حدود معينة تماماً . ان يتيح التطبيقات التقنية ، هذا امر حسن ، وذلك لان الصناعة تقتضي ذلك . ولكن يجب ألا يسمح بالاجابةعن الاسئلة المختصة بالانسان ومصيره ،وخصوصاً فعليه ألا يتسرب الى ميدان التاريخ .

وبكلمة مختصرة ، الا يلامس الواقع الاجتماعي ، ألا يلامس العالم الواقعي لم تعد الرأسمالية مطلقاً في حاجة

الى الفلسفة من اجل تطورها ، وانما فقط من اجل الدفاع عنها، فالفلسفة البورجوازية تصبح منذ ذلك الحين جامعية، فهي م تعهد تهم غير اساتذة الفلسفة وتلامذتهم ، ولم يعد لها من عمل تقوم به سوى الدفاع ضد العلم ، ضد التاريخ، ضد الصعود التاريخي للطبقة العاملة ، وانما يطلب فقط الى الفلسفة ان تعلن بأن الحقائق العلمية لا تتجه نحو جوهر الاشياء ، وان التاريخ ليس علماً ولا يمكن ان يطمح الى القوانين الموضوعية وخصوصاً ان المادية التي تؤكد العكس ليست جديرة باسم فلسفة .

ثالثاً :

والمرحلة الثالثة من مراحل الفلسفة البورجوازية هي مرحلة الاستعمار ، ومرحلة الثورات البروليتارية . وثمة ثلاث وقائع تعمق في خطورة قلق البورجوازية وقلق مفكريها .

أ) ـ لقد تعمقت تناقضات الرأسمالية وتضاعفت ، ولم يعد انهيار النظام الرأسمالي يبدو مؤجلاً الى مهلة بعيدة ، وإنما العهد ؛ عهد الرأسمالية المتعفنة ؛ ولقد أقفل

الأفق التاريخي للرأسمالية اقفالا مباشراً .

ب ـ وصعود الطبقة العاملة انما هو صعود عاصف مجتاح والطبقة العاملة تعي ذاتها وقوتها ورسالتها القضاء على النظام الرأسمالي وثمة عقيدة هي المادية الديالكتيكية ، تلهم الطبقة العاملة وتقود نضالها الظافر .

ج) ـ ان العلوم تنمو نمواً شديدا مجتاحاً ، وخصوصاً منذ نهاية القرن التاسع عشر .

لقد اقتضت هذه الاخطار مهمات الفلسفة البورجوازية ، فينبغي بأي ثمن كان، ان يحط من شأن العلم والتاريخ وتنزع صلاحيتهما لانهما شاهدان لا يحتملان ، على انحلال النظام الرأسمالي :

ويجب ان توضع المادية ـ وهي سلاح النضال في يد الطبقة العاملة ـ خارج ساحة الفلسفة ، وعداء الفلسفة البورجوازية للمنهج المادي ، وللمادية الديالكتيكية ، ليس الا وجهاً ايديولوجياً من نضال الطبقة البورجوازية ضد الطبقة العاملة ، وضد الاشتراكية .

وأخيرا فسوف لن يكفي انشاء سد ضد الموجة الصاعدة ، موجة الحقائق العلمية والتاريخية ، بل يجب ، بأي ثمن كان ، ان يقدم بوصفه صالحاً لحل القضية الجوهرية ، قضية علاقات الانسان بالكون والحياة فيجب ان يبتكر شكل للمعرفة لا يكون هو العلم ، يعني ان تخلق خرافة ، والبورجوازية لا تتشدد في صفة هذه الخرافة .

ولقد كانت هذه الفلسفة البورجوازية في زمن حداثتها ، مادية ، كانت تمجد العقل والانوار ، ولكن بعد مرور مائة عام ، هاهم رجال الدولة فيها ، ورجال المال ، وقد طغت عليهم الازمات الداخلية للنظام الرأسمالي ، وأقلقهم صعود البروليتاريا الذي كشفت عنه (عامية) باريس ، بدأوا يتحدثون عن تقييد (بروميتوس العلم) ، وفي الوقت نفسه يجدهذا التشاؤم تعبيره الفلسفي ، وهو الذى على طرف النقيض من تفاؤل الانسيكلوبيديين .

وبدلاً من تمجيد العلم والعقل وقدرتهما العليا الظافرة المسيطرة، ها هو «برغسون» يحقر الذكاء العامل عمل الآلة، وها هو «بوترو» يبذل أقصى جهده للعثور على ثغرات من «غير لازم الحدوث»، في قوانين الطبيعة لافساح مجال للخوارق والمعجزات، ولاشليه يبحث للاستدلال العلمي عن أساس صوفي، في حين ينادي برونتيير مع المنادين «بافلاس العلم» وذلك في اللحظة نفسها التي يحقق فيها العلم اعظم انتصاراته واحسمها.

والجميع يلعنون معاً المادية، أو يحاولون تجاهلها، هذه المادية التي كانت في القرن الثامن عشر مفخرة البورجوازية الصاعدة. وهكذا يحدث كل شيء، كأن هذه الطبقة قد استخدمت المادية للاستيلاء على الحكم، والمثالية للاحتفاظ به.

ولكن خط السير هذا، للفلسفة البورجوازيه يعرض ايضا وجها آخر، إذ لا يكفي نفي موضوعية قوانين العلم منذ اللحظة التي يحكم فيها الواقع على الطبقة البورجوازية ونظامها الرأسمالي، بل يجب ايقاف

حركة التاريخ ، او كبحها على الاقل . وهذا يعني انه لا يكفي انكار المادية، بل يجب ايضا انكار الديالكتيك يجب ان يفسر فلسفيا ان العالم كما هو ، مع بعض التعديلات الطفيفة عند الضرورة القصوى ، يطابق حقيقة ابدية .

حين يقول التاريخ لطبقة : (يجب ان تموتي) ، ترتفع صرخة فوست : « قف لحظة » ، انك في غاية الجمال » . وعندئذ : يحاولون القاء موشحات غيبية لتدبير هذه الابدية ، ويسمح لهم حبس حركة الحياة وتجميدها في الابدية الميتة لمذهب فلسفي ، ويسمح لهم فصل الفكر عن الواقع وجعله العوبة من الاعيب الاقتناع على طريقة « الوضعيين » ، ويسمح لهم بحصر العقل في اسوأ ضروب المذهب الذاتي المتعلق بالنجاح ، على طريقة القائلين بفلسفة الذرائع .

جميع هذه الضروب سوف تستقبلها احسن

استقبال الطبقة التي تنحدر عن مسرح التاريخ ، ذلك لان فكراً كهذا لا تتشابك أسنانه ، ولا يترابط محركه مع التطور الملموس للتاريخ ، ويبقى بالتالي غير مضر بالنظام الذي يموت .

لقد قبلت البورجوازي وما تزال تقبل ، بالتسامح نفسه جميع الخرافات التي تراعي الشروط التي اشرنا اليها ، وللحط من شأن العلم والتاريخ ونزع صلاحيتهما ، استقبلت البورجوازية استقبالا لابناء اسرة واحدة هي اسرتها لاشلييه وبوترو ، اللذين استنجدا بالصوفية المسيحية ، على حد سواء مع نيتشه وترهيته الوثنيه ، وكما استقبلت حدس برغسون اللاعقلي ، ومذهب (الان) العقلي الزائف ، ووجودية غبريال مرسيل المسيحية وكذلك وجودية سارتر ، ووجودية ميرلوبونتي الملحدتين

ولا يدخل في نطاق دراستنا ان نفحص بالتفصيل هذه المراحل المختلفة للفلسفة البورجوازية ؛ واندفاعها في البدء للاستيلاء على العالم وتقهقرها المذعور نحو

اللا أدرية ، وهما حركتا انبساط وانكماش لفكر طبقة في عهد صعودها التاريخي حين كانت تخاطب جميع الناس ، وفي عهد تدهورها حين اصبحت جامعية سكولاستيكية .

ولسوف ندرس فقط الاسباب التي تقود الفلسفة البورجوازية الى تكريس جهودها لنظرية المعرفة بصورة خاصه .

وسوف ندرس آلية التزوير في الفكر العلمي . ولسوف نختار مثالا نموذجياً لهذا الموقف وهو العقيدة الوحيدة التي تجهد لتخطي جدران المدارس وهي :

الوجودية

●●●●●●●●●●●

ميرلوبونتي
وفلسفة الظاهرات

يقدم لنا مؤلف ميرلوبونتي « علم ظاهرات الادراك الحسي » من الوجودية ، العرض الاكثر تمتعاً بصفة المذهب .

وواضح ان اهـــداف ميرلوبونتي هي اهداف كل الفلسفة البورجوازية في عهد الرأسمالية المتعفنة في عهد الاستعمار :

اولا :

الحط من شأن العلم ونزع صلاحيته من حيث هو معرفة قادرة على حل القضايا الجوهرية للحياة .

ثانياً :

ان تعرض ضرباً مـــن ضروب المعرفة بوصفه ذا قيمة مطلقة – ولا يكون هو العلم – اللاأدرية والخرافة . هذان هما قطبا هذا الفكر .

يذكرنا ميرلوبونتي منذ الصفحة الاولى من مقدمته ، بالتعليم

الاول من تعاليم علم الظاهرات وهو « انكار العلم » . ويرسم صورة أولية لمنهجه كله

« انا لا استطيع ان افكر بذاتي بوصفي جزءاً من العالم . . . كل ما اعرفه من العالم ، حتى بوساطة العلم ، انما اعرفه من نظرة خاصة بي او من تجربة عن العالم ، بدونها لا تستطيع رموز العلم ان تعني شيئاً » .

ولسوف نجد خلال الكتاب كله هذا المعنى الذي يتعلق بال ميرلوبونتي : ليس العلم الا افقاراً وتشويهاً لمعرفة اغنى واكمل وبالتالي اصح . وهذه المعرفة هي — في زعمه — المعرفة التي يقدمها علم الظاهرات ، وهو خرافة جديدة مكلفة بان تحل محل « الحدس » الذي كانت تقول به البرغسونية . وسوف نبين كيف تبنى خرافة المعرفة « الحقيقية » . ولنكتف الآن بأن نشير بتوكيد ، الى الوجه السلبي وهو « انكار العلم » .

ان العدو الاول لفلسفة وجودية ظاهراتية كهذه هو « الموضوعية » ، ويقدم عنها ميرلو بونتي التعريف التالي ، يقول (ص ٤٠٢) :

« إن المثل الاعلى للفكر الموضوعي هو مذهب التجربة بوصفه حزمة من الارتباطات الفيزيائية الرياضيه » .

ونستطيع ان نتساءل هنا لماذا حدد ميدان « الموضوعية »

هكذا بصورة تحكمية اعتباطية في حدود العلاقات الفيزيائية الرياضية ؟

لماذا يعرف العالم الموضوعي هذا التعريف « النازع منزع الآلية » ؟

ذلك لأنه يجعل الموضوعي ، مثلاً للآلي ، تصبح محاكاة « الفكر الموضوعي » ، أسهل . وبفضل هذا الانزلاق من مفهوم إلى مفهوم آخر . وهذا التعريف لمفهوم الموضوعية . وهذا الافتقار لتعريفها يصبح من السهل اعتبار المعرفة التي يقدمها العلم والحس السليم غير كافية على نحو عابث . ومن السهل ان ينسب هذا الفقر إلى الفكرة المسبقة للموضوعية .

فيرلو بونتي يأخذ مثلاً هذا المأخذ على مدرسة سيكولوجية معينة يقول :

« ان العالم النفسي كان ما يزال يعتقد بأن الوعي ليس إلا قطاعاً من الوعي ، فعزم على استكشاف هذا القطاع كما يستكشف عالم الفيزياء قطاعه . كان يحاول وصف معطيات الوعي ولكن دون أن يضع موضع البحث ، الوجود المطلق للشيء حول الوعي .

وبكلمتي : « العالم والحس السليم » ، التوكيد على الكلمتين مني أنا — روجيه غارودي — كان يعني ضمناً العالم الموضوعي بوصفه إطاراً منطقياً لجميع أوصافه وبيئة لفكره » (ص ٧٢) .

ونضبط هنا على اللحم الحي ، ضمن جملة واحدة ، التبديل في المفاهيم « الوجود المطلق للعالم » و « العالم الموضوعي » . فلن يكون ثمة مانع خطر — في زعم ميرلو بونتي — من استخدام التعبيرين أحدهما في موضع الآخر ، إذا لم نكن بالاضافة إلى ذلك قد عرفنا العالم الموضوعي بوصفه العالم الآلي « للعلاقات الفيزيائية الرياضية ». بيد ان اثبات ميرلونتي كله مؤسس على هذا الالتباس ، فانه يكون قد هيأ لنفسه الظروف الملائمة حين يبين أن الوعي ليس قطاعاً من « الكائن » ، بتعريفه الكائن بأنه عالم النظام الآلي . ولكن دحض الالية لا يعني دحض المادية . وميرلو بونتي شأنه شأن جميع المثاليين منذ مائة عام ، يظن أنه سحق الماركسية بدحضه « لامتري » .

ذلك لأن الغاية الاخيرة لمؤلف ميرلو بونتي هي هذه : « النضال ضد الفلسفة الماركسية » . واوضح أنه أراد بلوغ هذه الغاية ، بما أن ثلثي استنتاجه مخصصان لمناهضة الماركسية وهو لا يواجهها على كل حال إلا من وجهة كونها « المادية التاريخية » ولكن ميرلو بونتي لا يلفظ أبداً كلمة « المادية » بصراحة ، بل هو يسميها « الواقعية » ، وهذا هنا أيضاً تقليد قديم من تقاليد المثالية الجامعية ، أن لا يلفظ حتى اسم « المادية » فعلى الجامعيين ألا يفسحوا المجال للاعتقاد بان المادية هي فلسفة من الفلسفات .

فميرلوبونتي لا يقول ابداً . « انني احارب المادية » ، بل يقول : « احارب الفكرة المسبقة الواقعية » . او يقول أيضاً « النظرة المسبقة عن الموضوعية » .

والحق ان هذه الفكرة هي فكرة ثابتة عند ميرلوبونتي فهذه العبارة نفسها : « الفكرة المسبقة عن الموضوعية » تتردد كل عشرين صفحة ، كأنها لازمة الاغنية ، فلننظر اذن كيف تنظم في كتاب « علم ظاهرات الادراك الحسي » الحرب ضد المادية ضد هذا العفريت الذي لا يسمى .

في البدء يتعلق الامر بمحاربة المادية دون ان يعترف ميرلوبونتي بانه مثالي ويجدد ميرلو بونتي ايضاً مرة اخرى محاولته لشق طريق ثالثة لتجاوز المازق الذي يفضي اما الى المادية وإما الى المثالية .

لقد كان هذا من قبل هو مزعم ارنست ماخ ايضاً . وفي سبيل هذه الغايه يستنجد ميرلوبونتي « بالعودة الى التجربة » (ص ١١٥) ، ولقد كان ذلك من قبل هو مزعم ارنست ماخ ايضاً .

وهذا المزعم المزدوج ينكشف لنا في تحليل ميرلوبونتي للتجربة ومنذ الصفحة الاولى من مقدمة كتابه يعين للمعرفة بداية اولى فعلى الفلسفة ان تبدأ بوصف « مباشر لتجربتنا كما هي » .

ويضيف المؤلف : دون أية مراعاة لعملية تكونها النفسية

والتفسيرات السببية التي قد يقدمها عنها العالم او المؤرخ أو العالم الاجتماعي » .

وتأكيد كهذا لا يؤلف فقط مسلمة اعتباطية تماما ، وانما انقلابا فلسفيا .

« وعلى هذا النحو قطع الوعي والتجربة عن التاريخ . فهما بلا ماضي وبلا ترابط سياق » . وهـذا هو القرار الذي أصدره « الظاهراتي » . فمن اين يستمد الفيلسوف هذا الامتياز ، هذا الحق الالهي الذي يخوله أن يضع ضد العلم وضد الحس السليم ، الكون جميعه بين قوسين ؟ لا يقول لنا المؤلف من أين . . .

فلنتبع موريس ميرلو بونتي إلى تلك الجزيرة المقفرة حيث يقوم على طريقة روبنسون كروزو ، بخلق العالم مجدداً ، ولكنه وهو الاكثر طموحاً من روبنسون ، سوف يدعي سن القوانين للعالم بأسره وبعد أن طرد فيلسوفنا العلم ، والتاريخ ، والحس السليم ، بوصفها أشياء مضايقة ، سوف يستعيد عالم الظاهرات « هذه الملامسة الساذجة مع العالم ، ليمنحه أخيراً قانوناً فلسفياً » .

وكلمة أخيراً هذه التي ملؤها التواضع ، تضع ميرلو بونتي في مرتبة أسمى من هيغل بمراتب . لقد كان هيغل متوهماً فقط بأن الفلسفة تنتهي بمذهبه ، أما ميرلو بونتي فيعتقد أنها تبدأ بعقيدته .

ففيم تقوم إذن هذه التجربة التي يبدأ معها كل شيء ؟ طبعاً هذه التجربة تضعنا إزاء « معطيات مباشرة » كتجربة برغسون وتجربة ماخ . انها « معرفة أصلية » (ص ٥٣) :

يقول ميرلو بونتي (ص ٦٩) : ان اول عمل فلسفي هو العودة الى العالم المعاش ، وراء العالم الموضوعي : والخاصة المميزة لهذا (العالم المعاش) هي كونه متقدماً على التمييز بين الذات والموضوع .

يقول ميرلو بونتي (ص ٣٣٤) :

« التفكير إنما هو تلمس ما هو أصلي ، يعني الذي يمكن بوساطته لسائر الاشياء أن تكون وأن تخضع للفكر » .

ويهاجم ميرلو بونتي المسلمة القائلة « بأن كل ما هو موجود ، موجود إما بمثابة شيء وإما بمثابة وعي ، وليس ثمة ما هو حد وسط بين بين » (ص ٤٧) وتثور ثائرته ضد هذا التقليد الديكارتي الذي يقضي بان « ثمة معنيين ومعنيين فقط لكلمة وجود ، الوجود كشيء ، أو الوجود كوعي » (ص ٢٣١) . ويبحث ميرلو بونتي عن نمط مبهم ملتبس بين بين الوجود (الصفحة نفسها) . فما هو إذن هذا العالم المعاش ؟

ومن « يعيشه » بادىء بدء ، سوى عالم الظاهرات ؟ ذلك لأن هذا العالم هو — في رأي ميرلو بونتي — من عامة البشر ومن أصحاب (الحس السليم) كما يقول مؤلفنا ، وسوف يدهش كثيراً حين يعلم أنه عاش هذه « التجربة الأصلية » حيث لا يتميز الانسان عما يوجد خارجاً عنه وبدونه .

وكذلك في – زعم ميرلو بونتي – ليس (هـذا العالم المعاش » هو عالم التجربة العلمية التي يلاحظ ميرلو بونتي بازدراء أنها لا تعمل اكثر من (أن تتبع بـلا انتقاد ، مثال المعرفة المعين للشيء المدرك حسيا) (ص ٦٩)

هذه الفكرة الواضحة جداً لكل من يعمل او يفكر والتي لا غنى عنها ابداً لكل عمل ولكل فكر ، وهي أننا لا نستطيع أن نؤثر في العالم وان نفكر فيه اي تفكير إلا اذا كان موجوداً خارجاً عن عملنا وعن فكرنا، يحاول ميرلوبونتي عبثا ان يعميها وذلك بأن يصنع من قطع شتيتة من كل جنس ، في خارج التجربة اليومية والتجربة العلمية مفهوما نقلاً للتجربة التي عاشها هـو – الظاهراتي فيلسوف الميرلوبونتيه – وحده . ولماذا كان هذا ؟ لسببين :

اولا :

من اجل ان يوضع فوق « العالم الموضوعي » عالم العلم ، عالم آخر أغنى لا يكون عالم العلم بالنسبة اليه – كما يزعم – الا قريبه الفقير الذليل .

يقول ميرلو بونتي (١١١) :

« ينبغي لنا ان نوقظ بادىء بدء هذه التجربة عن العالم الذي [illegible] التي يكون العلم بالنسبة لها هو التعبير الثاني »

او ايضا (ص ٢٩٦) :

« انما نحن نجهد لوصف ظاهرة العالم يعني ولادته بالنسبة الينا في هذا الحقل ، حيث كل ادراك حسي يضعنا مجدداً وحيث مازلنا وحيدين ، وحيث الاخرون لا يظهرون الا فيما بعد ، وحيث المعرفة وخصوصا العلم يضيق مجال النظرات الفردية ويجعلها كلها في مستوى واحد » .

ثانياً :

والهم الثاني لميرلو بونتي هو محاولته ان يثبت انه بهذه التجربة «تخطى» التعارض بين المادية والمثالية .

ان المثالية بجعلها الخارج متضمنا ـ ؟

والواقعية (نقرأ : المادية د. غ.) باخضاعي لفعل سببي . وانما يزيفان العلاقات الموجودة بين الخارج والداخل ، ويجعلان هذه العلاقة غير ممكنة الفهم (ص ٤١٧) .

وان التجربة الاصلية لعلم الظاهرات تجهد لحو قضية هذه العلاقات محواً بارعاً : « ماذا عندنا ، اذن في البداية ؟ » ليس عندنا معطى متعدد مع ادراك تحليلي ، يجوبه ويجتازه من ناحية الى ناحية وانما عندنا حقل ادراكي حسي معين ، خلفيته مؤلفة من العالم . فلا الشيء ولا الذات ليسا موضوعين وضعاً (ص ٢٧٥) وهذه التجربة الاولى هي خليط اصلي من الانا ومن العالم ، وهـذا ما عدته الوجودية باسم (الكينونة في العالم) .

هنا نحن في صميم السحر . فتغيير بسيط في الكلمات له فاعلية « حل » جميع القضايا . وانا لان الكينونة في العالم هي نظرة سابقة للموضوعية تستطيع ان تتميز عن كل حركة تطور تصاغ بضمير الغائب - هو يعرف وعن كل كيفية .

وكذلك عن كل « انا مفكر » ، وعن كل معرفة مصنوعة بضمير المتكلم - أنا أعرف - ولان الكينونة في العالم تستطيع ان تحقق الارتباط بين النفسي والوظيفي (ص ٩٥) .

وهكذا على الرغم من الحس المشترك السليم ، وعلى الرغم من العلم والتاريخ انت تطلق اسم التجربة على خليط من الانا والعالم ، وتعمد هذا باسم (الكينونة في العالم) وتعلن بانك تخطيت المثالية والمادية . واليك من خلال نصوص ميرلو بونتي نفسه ، مراحل هذه العملية التي عمدنا نحط الى ترجمتها بلغة واضحة عادية .

(ص ٤٦٦) . « إن الحقيقة الاولى هي حقاً - انا أفكر - ولكن بشرط ان يفهم بذلك - انا لذاتي بكوني في العالم - » .

(ص ٤٦٧) الداخل والخارج لا يمكن ان ينفصلا . العالم هو تماماً في الخارج وانا تماماً خارج ذاتي » .

وتـــلي الترجمة بلسان « ظاهراتي » . اذا كانت الذات موضوعة وحتى لو لم نكن الا مجرد امكان لتكون موضوعة ، فذلك انها لا تحقق الا بكونها في الواقع جسماً ، وبدخولها بهذا الجسم الى العالم . فاذا كنت عند تفكيري في جوهر الذاتية ، اجدها مرتبطة بذاتية الجسم وذاتية العالم ، فذلك لان وجودي كذاتية لا يشكل الا شيئاً واحداً مع وجودي كجسد ومع وجود العالم » .

واخيراً في (ص ٤٩١) - العالم لا يمكن فصله عن الذات ولكن عن ذات ليست شيئاً آخر سوى مشروع للعالم ، والذات لا يمكن فصله عن العالم ، ولكن عن عالم هو نفسه الذي يطلقه الذات هي كينونة في العالم والعالم يظل (ذاتياً) بما ان تركيبه ومفاصله ترسمها حركة تعالي الذات ، فنحن نكتشف إذن مع العالم بوصفه مهداً لجميـــع الدلالات ، ومعنى لجميع المعاني ، الوسيلة التي بها نتخطى تعاقب الواقعية والمثالية -

على هذا النحو ، حسب رأي ميرلو بونتي : يتحقق تخطي المثالية والمادية (يعني الواقعية كما يعبر ميرلو بونتي) ، ولا فائدة من البحث عن اي تبرير كائناً ما كان . إذ يكفي أن يرفض مسبقاً كل نقد بهذه الصيغة النهائية : لا يمكن الوصول الى علم الظاهرات إلا بالطريقة الظاهراتية » (المقدمة ص ٢) .

ومع ذلك فالتساءل ما إذا لم يكن هذا التخطي تخطياً لفظياً محضاً، كيف بدأت الاشياء ؟

إن ميرلو بونتي قد تركز بدون مقدمات دفعة واحدة في الوعي، بل إنه محا الآثار خلفه مفكراً أنه مثالي .

يقول في مقدمته (ص ٣) – هذه الحركة متميزة كل التميز عن العودة المثالية إلى الوعي – وفي موضع تال يقول (ص ١٩٤) – ليست القضية هي قضية تسيير الوجود البشرى على رأسه –

ما قيمة هذه الافكار ؟ يعرف ميرلو بونتي المثالية تعريفاً ضيق الحد، فهو يحصر المثالية حصراً اعتباطياً في الشكل الكانتي . إن وحدة الوعي هي معاصرة لوحدة العالم وهي التي تخلقها . وعلى هذا يجيب ميرلو بونتي (العالم ماثل كائن قبر أي تحليل استطيع أن أقوم به له) (ص ٤)، ولكن إذا كان العالم قبل اي تحليل استطيع اقوم به عنه فهو ليس موجوداً في رأي ميرلو بونتي، قبل الوعي الذي عندي عنه . وعنده هنا مثالية محضة :

كشف لينين عام ١٩٠٨ القناع عن مثالية ماخ وأفيناريوس اللذان كانا يدعيان الدعوى نفسها التي يدعيها ميرلو بونتي تخطى المثالية والمادية .

ماذا كان يقول وأفيناريوس، مثلاً . كان يقول : (إن الانا والبيئة هما دائماً معطيان معاً، وليس ثمة من أي

وصف كامل لما هو معطي يستطيع أن يتضمن بيئة بدون انا تكون هذه البيئة خاصة به ، على الاقل بدون الانا الذي يصف الشيء المعطى) .

على هذا النحو كان وصفه للتجربة . إن ميرلو بونتي لم يغير شيئا جوهريا في هذه القضية – حتى في التعابير تقريبا – وبدلا من « وصف » قال « علم الظاهرات » ، وبدلا من « الانا والبيئة » قال « الكينونة في العالم » ، وبدلا من (التناسق منذ الاساس) بين الذات والموضوع قال (الذات المقدر عليها الكينونة في العالم) . ولكن جوهر القضية ، المعبر عنه بلغة واحدة ، متماثل عند افيناريوس وميرلو بنتي . وهذا (الجوهر) انما هو جوهر المثالية الذاتية نفسه .

يقوم ميرلو بونتي اليوم ، بوصفها عقيدة تدشن عهداً جديداً في الفلسفة ، عقيدة تعطي (اخيراً) شرعة فلسفية للعالم، الموضوعات نفسها التي كان يستخدمها افيناريوس عام ١٩٠٨ الكي يزعم هذا المزعم نفسه .

ومصيبة ميرلو بنتي ، وكذلك مصيبة أفيناريوس هي ان الغرض الذي كانا يزعمان فيه (تخطي) مشكلة (المثالية او المادية) ، قد سبق أن استخدمها كغرض للمثالية الذاتية ، فيخته عام ١٨٠١ ، وبركلي عام ١٧١٠ . يذكر لينين في

كتابه (المادية ومذهب النقد التجريبي) (ص ٤٥ - ٤٦) نص فيخته (المسمى) عرض نير موجه الى الجماهير الواسعة لجوهر أحدث فلسفة) . ويستخدم فيخته الحوار والقارىء الذي يضع الاسئلة على لسانه مادي على نحو ساذج او (واقعي) كما يقول ميرلو بنتي ، وافيناريوس وآخرون .

يقول فيخته : (يجب ان يكون ثمة نظام للاشياء ، ومن هذه الاشياء يجب استنتاج الوعي) ، ولكن هنا يتدخل الفيلسوف لدحض هذه الفكرة المسبقة عن الموضوعية ، لدحض وهم الموضوعية ، كما يعبر ميرلو بونتي وللاستنجاد (بالوعي الحقيقي) كما يقول فيخته (وبالطريقة الظاهرانية) ، كما يقول ميرلو بونتي .

اسمع فيخته يقول :

« هل ثمة شيء يبدو في ذاتك او امامك عن غير طريق الوعي الذي تدركه به او الا من خلال هذا الوعي ؟ .

لا تجهد اذن ، للخروج من ذاتك لتحيط باكثر مما تستطيع بعني الوعي والشيء ، الشيء والوعي ، او بتعبير اصح ، لا هذا ولا ذاك كلا بمعزل عن الاخر . وانما تستطيع فقط الاحاطة بما ينحل بعدئذ ، الى هذا وذاك .

وبتعبير آخر ما هو على نحو مطلق ذاتي - موضوعي ،

وموضوعي – ذاتي .

ولنقرأ الان ما كتب ميرلو بونتي (ص ٣٧٠) :
« ان الطبيعة بكاملها هي اخراج لحياتنا الخاصة ، او حياة مخاطبنا في نوع من الحوار . هذا هو السبب الذي لا نستطيع من اجله عند آخر تحليل ان ندرك شيئاً لا يكون مدركاً حسياً ، او يمكن ادراكه حسياً ، وكما كان يقول بركلي ، حتى الصحراء التي لم يزرهـا اي بشري مطلقا لها مشاهد واحد على الاقل ، وذلك هو نحن انفسنا حين نفكر بهذه الصحراء ، يعني حين نقوم بالتجربة الذهنية للادراك الحسي . الشيء لا يمكن ابداً ان ينفصل عن شخص ما لكي يدركه حسيا . انه لا يستطيع أبداً ان يكون شيئا في ذاته ، ذلك لان مفصلاته وتحركاته هي نفسها مفصلات وتحركات وجودنا ، ولانه موضوع في طرف نظرة اليه ، او في نهاية تجربة حاسية ، هي تمنحنـه تضفي عليه انسانية .

ومن وجهة النظر هذه (وفي هذا المطل) ، كل ادراك حسي هو اتصال او استعادتنا أو اكمالنا لمقصد خـارجي غريب ، أو على العكس ، اكمالنـا الى الخارج لقـوانا لادراكية الحسية ، تزاوج جسمنا مع الاشياء .

واذا لم نكن قد تنبهنا الى ذلك من قبل ذلك ، فانما

لان وعينا للعالم المدرك حسيا قد جعلت صعبة من قبل الافكار المسبقة للفكر الموضوعي ووظيفتها الدائمة ان ترد جميع الظاهرات التي تشهد باتحاد الذات والعالم ، وان يستبدل بها الفكرة الواضحة فكرة الشيء بوصفه شيئاً في ذاته ، وفكرة الذات كالتقاطة وعي . انها تقطع اذن الروابط التي تجمع الشيء والذات المتجسدة .

ان التقارب هنا ذو مغزى كبير فهو يبين ما يوجد من مشترك بين بركلي ، وفيخته ، وأفيناريوس ، وميرلو بونتي وهو التأكيد بأن ليس ثمة وجود بدون الوعي وهذا هو التعريف الذى تقول به المثالية ضد المادية التي تؤكد العكس .

ان الالغاء الشهير للتناقض بين المادية والمثالية بواسطة الكلمة الصغيرة « التجربة (١) » ، يتبين انه خرافة .

هكذا كتب لينين عام ١٩٠٠ (٢) وهذا القول يصح ضد ميرلو بونتي ، كما يصح ضد افيناريوس . انهما بزعمهما تخطي المثالية والمادية ، انما يريدان ان يردونا الى المثالية الذاتية وحدها وبكل بساطة .

(١) ما هو معطى ليس الشيء وانما هو تجربة الشيء ، ميرلو بونتي ؛ علم الظاهرات — ص ٣٧٦ .

(٢) المادية ومذهب النقد التجريبي — ص ٤٩ .

ان القضية المثالية القديمة القائلة (بترابط) الذات والموضوع هي القضية الاساسية (لعلم ظاهرات) الادراك الحسي .

« ان وعي العالم ليس مؤسساً على وعي انا » ، وإنما هما متعاصران تماماً بالضبط (ص ٣٤١) أو أيضاً « الشيء هو ما يترابط مع وجودي » (ص ٣٦٩) او الشيء والعالم لا يوجدان ، إلا من حيث هما معاشان من قبلي ، او من قبل ذوات مثـــلي (ص ٣٨٤) .

ويبدي ميرلو بونتي دهشته (ص ٤١٢) قائلا :

(إذن فنحن قد حملنا الى المذهب الذاتي الفرداني) . هذا اكيد اذ كان العالم وانا ، ليسا موجودين الا احدهما بالآخر ، فالشمس لا تكون موجودة الا بواسطة عيني عيني لكي تراها .

وميرلو بونتي لكي ينجو من هـــذه الخطوة الخاطئة ، من هذه الذاتية الفرداوية المضحكة ، التي لا ينجو منها اي شكل مـــن اشكال المثالية ، يستعد بكل بساطة ، أرث الحجج عند (اللامادية) التي كان ينادي جابركلي .

اليك ما يقول ميرلو بونتي (ص ٤٩٤) :
(ماذا يريدون أن يقولوا بالضبط ، بقولهم ان العالم قد وجد قبل الضمائر البشرية ؟

يريدون القول مثلاً بأن الارض انبعثت من سديم أولي

حيث لم تكن عناصر الحياة قد تجمعت بعد ، ولكن كلا من هذه الكلمات ، مثل كل معادلة من معادلات الفيزياء تفترض مسبقاً تجربة لنا بالعالم سابقة للعلم ، وهذا الرجوع الى العالم المعاش يسهم في أن يؤلف مـــاله من دلالة ذات قيمة فليس ثمة شيء مطلقاً يجعلني أفهم أبداً ، ما يمكن ان يكون سديم لم يره أحد .

ان سديم لابلاس ليس وراءنا ، في أصولنا ، انه أمامنا في العالم الثقافي . ومن جهة أخرى ، مـــاذا يريدون ان يقولوا ، حين يقولون ان ليس ثمة عالم بدون كينونة في العالم!

انهم يريدون بذلك أن العـــالم يؤلفه الوعي وانما ان الوعي يكون موجوداً دائما عاملاً في العالم .

ان فظاعة تأكيدات كهذه تبين الى أي حد لا مرد لها محتومة المشكلة التي كانوا يزعمون أنهم تخطوها : المـــادية او الذاتية الفردية .

ان التأكيد المثالي — لا موضوع بدون ذات — يحصر ميرلوبونتي عند هذا الحد الذي لا خلاص منه : « ليس ثمة ما يجعلني مطلقاً أفهم ما يمكن ان يكون سديم لم يسبق ان رآه انسان قط » . كأن هذا ليست هي حالة اكثر السدم . وكأن الكوكب نبتون لم يوجد مطلقاً قبل العالم لوفرييه ، او الجراثيم لم توجد قبل باستور !

وميرلو بونتي يزيد من خطورة حالته فيعمم هـذ المذهب الذاتي الفرداني ، فيصرح بوقار (ص ٤٢٥) ، وفي نهاية الامر ليس للكوجيتو الديكارتي من معنى الا بكوجيتي انا الخاص . ويعـود لـيردد في خصوص التاريخ الذي لا يمكن طبعاً حين ننظر اليه من هذا الافق ان يكون له معنى آخر غير المعنى الذي اعطيه له .

ان ميرلو بونتي يساوي في المثالية حتماً ، بركلي وفيخته ، ونستطيع ان نطبق عليه صيغة سارتر في « الكينونة والعدم » . « كل شيء يجري كما لو ان العالم والانسان ، والانسان في العالم ، لا تتوصل إلى ان تحقق الا الها فاشلا »

ان التعريف المدعي الذي يقدمه ميرلو بونتي عن الوعي هو حقاً التعريف الذي يعطى عـن اله فاشل فميرلو بونتي يقول :

« إن جوهر الوعي هو انه يعطي ذاته عالماً او عوالما (ص ١٥١) . يعني ان يكون امام ذاته نفسه افكاره الخاصة بمثابة اشياء » .

وما يميزه من المثالية التقليدية انه تخلى عن الجهاز العلمي الذي كان يؤلف عظمة الابنية عند فيلسوف مثل ديكارت او هيغل .

يقول ميرلو بونتي (ص ١٢ المقدمة) :

« العالم ليس هو ما افكر به ، ولكنه ما أعيش » ومعه فقدت المثالية شفافيتها العقلية ، والامر يتعلق هنا بمثالية متقهقرة .

ان المسلمة الموجودة عند نقطة البدء نصف المستترة ، هي مثالية محض يبقى علينا أن نرى كيف يتطور المذهب عند ميرلو بونتي .

لقد رأينا ان ميرلو بونتي قد تركز دفعة واحدة في الوعي دون ان يبحث لا عن تاريخ نشوئه ، ولا عن « ارتباطاته السببية » . وهو لا يستطيع أن يتقدم الا بقيامه ببيان مفصل لهذا الوعي ، لهذه « التجربة » . ولسوف تكون طريقته مثالية كالمسلمة الاولية .

« في الصفحة ٤٩٥ » :

« ان حل جميع قضايا التصعيد يوجد في كثافة الحاضر الما قبل الموضوعي ، حيث نجد جسديتنا ، واجتماعيتنا ، والوجود المسبق للعالم ، يعني نقطة التمهيد والبدء «بالتفسيرات» ، في ما عندها من شيء مشروع ، وفي الوقت نفسه أساس حريتنا . وهذه التجربة الاصلية هي منبع عجيب الغزارة ، وهذا الفن نفسه يجعلنا مرتابين .

ما هو الواب الخفي الذي سوف يؤمن كل تطور (علم ظاهرات الادراك الحسي) ؟

ان التحليل منطلقا من الوعي ، يبدأ بتحليل الوعي ، انه اولا تحليل سيكولوجي . وهذه السيكولوجية هي من نوع خاص .

يقول ميرلو بونتي (ص ٧٢) ان عالم النفس باتخاذه موضوعا لتفكيره المذهب الجشطالي ، يقطع صلته بمذهب علم النفس . فالموقف التصعيدي اصبح متضمنا فعلا في الاوصاف التي يقدمها عالم النفس مهما كانت قليلة الامانة .

ان الوعي من حيث هو موضوع للدراسة ، يقدم لنا هذه الخاصية وهي أنه لا يمكن تحليله حتى بصورة ساذجة ، دون ان يجرنا الى وراء مسلمات الحس المشترك السليم .

فالعالم بأسره لم يعد الا منطقة من مناطق الوعي : فاستبار مضمون الوعي سوف يقدم لنا إذن ، جميع أسرار العالم .

ويضيف ميرلو بونتي (ص ٧٣) ، « ان علم النفس هو دائما محمول في خاتمة امره الى قضية تكون العالم » . وانا بمقتضى هذه المبادىء أستطيع ان اكتشف سديم لابلاس في حنية صغيرة من حنايا وعيي !

فما هي اذن نقطة البدء في استكشافنا ، وما هو سيكون دليلنا ؟ ما هو المعطى المباشر ؟

يصدر ميرلو بونتي (ص ٧٠) قراره قائلا :
« ان انفعالي انطباعي منذ الآن ، سوف يكون شيئا

مباشراً : ليس تأثري الشيء الذي لا يشكل الا شيئا مع الذات ، وانما سوف يكون هو منتج الاجزاء وتركيبها وانتظام الاجزاء .

ان علم النفس الجشطالي هنا يحول الى علم للتكون فكل شكل ، وكل دلالة ، ترفع هنا الى مرتبة الجوهر ، دائما بمقتضى القدرة المطلقة التي قلدها عالم الظاهرات لنفسه .

فالوعي معرف بالنسبة الى الجشطالية « من حيث أنا وعي يعني من حيث شيء له معنى عندي . . » . هكذا يقول ميرلو بونتي في مقدمته (ص ٦) .

ولما كان الوعي يحوي العالم ، فان هذه الدلالات ، تصبح حقيقة الحقائق ، وسوف يعرف الوجود تماما كالوعي: فهو كما يقول لنا ميرلو بنتي (ص ١٩٨) . العملية نفسها التي بها عالم مالم يكن له معنى يتخذ معنى .

وبتفصيل الوجود والوعي على هذا النحو ، من قماشة واحدة ، فان مشكلة علاقتهما سوف تنحل سريعا ، والحقيقة انها ان المؤلف حلها بضربه صفحاً عنها ، وحلها في الاتجاه المثالي المحض الذي اقتضته المسلمات الاولية المثالية التي وضعها المؤلف لنفسه .

فحين استبعد الفكرة المسبقة (وهم الموضوعية) للموضوعية أصبح الواقع المحسوس يفهم بواسطة نوع من التملك عندنا

جميعا تجربته حين نقول اننا (وجـدنا) ، الارنب في اوراق أحجية (ص ٧٠) ، وهكذا تصبح الفلسفة حسب رأي (علم ظاهرات الادراك الحسي) ، فن حل الاحاجي ، فن اكتشاف ، أرانب صغيرة بين اوراق الاحاجي ، وهو شغل ممتع لطيف ، ولا ضرر منه بالتأكيد .

والنظام السائد يجد فيه غايته ولن يتردد في التصفيق لمفهوم للفلسفة يبلغ هذا الحد من التساهل الوديع ، هذا المفهوم الذي اخطأ بعدم تفكيره فيه فيلسوف من امثال ديكارت ، وديدرو ، وكارل ماركس . فلو فعلوا لكانت مضايقاتهم مع السلطات اقل . هذه السلطات التي كانت ترى بدون عطف ، نحو فلسفة تعين لذاتها مهمة وهي : (ان تجعلنا سادة الطبيعة ومالكيها) . وان تغير العالم .

ولكن فلنعد الى أرنبنا الصغير المختبأ بكل تواضع بين الاوراق ، ولنقم « بالعودة الى الشيء الظاهرتي » (ص ٧٠) فسوف ننتقل من علم النفس الجشطالتي الى الفلسفة « الظاهراتية » مارين من الاحجية الى اللعب بالكلمات وميرلو بونتي يستعير هذا اللعب بالكلمات من كلوديل ويتوج به الفصل الذي وضعه في كتابه عن الزمان .

« الزمان هو معنى الحياة (افهم كلمة معنى بكل دلالتها حين نقول اتجاه مجرى مائي ، معنى عبارة ، وحساسية قاسية

حاسة الشم (١) ، كلوديل ، فن الشعر . علم ظاهرات الادراك الحسي (ص ٤٦٩) .

ومهمة هـــذا اللعب بالالفاظ تأمين الانتقال من علم النفس الى علم الكائنات (الاونتولوجيا) انه من الحجة المتعلقة بعلم الكائنات . والواقع ان (اتجاه) ، مجرى الماء ، هو خط سير الحركة المادية . ومعنى (عبارة من العبارات هو حركة من حركات الفكر ، ومعنى (حاسة) الشم هو هنيهة من تحـــول حركات فيزيائية الى حركات نفسية وخلط هـــذا كله ، انما هو علم ظاهرات الادراك الحسي !...

والابدال الخفي لعمل داخلي بحقيقة خارجية وبالعكس . هذه هي آلية (التحويل الظاهراتي) كلها . ولتزييف هذه الشعوذة اللفظية فتبدو انها تحليل .

وجد ميرلو بنتي وسيطاً روحانيـــاً وهو : الجسد . ان الجسد يتلقى الرسالة العجيبة وهي التغلب على التعارض بين الشيء والفكر بتصويره لنا الـــذات المدركة حسيا ، بمثابة العالم المدرك (ص ٨٦)

ولكي يلعب الجسد هذا الدور ، عليه ان يخضع لعملية

(١) ان لفظة sens الفرنسية تشمل بمدلولاتها المختلفة جميع معاني الكلمات المطبوعة بحروف فاحمة . (المعرب)

تحول حقيقي لا يعد ازاءه سر تحول الخبز والخمر الى جسد المسيح الا كلعبة اطفال .

ويقول لنا المؤلف (ص ٤٠٣) .

(وبديهي ان هذا يفترض ان يحول مفهول الجسم تحويلا عميقاً . . علينا ان نعرف كيف نميزه من الجسم الموضوعي كما تصنعه كتب الفيزيولوجيا) . فلنفحص طرائق هـذه الكيمياء السحرية .

يعرف ميرلو بنتـي اولا (التركيب الغيبي) لجسمنا (ص ١٩٥) . اولا ان جسمي هو بالمعنى الحرفي للكلمة ، مركز العالم) .

(ان الجسم الخاص بانسان ما هو في العالم المدلول الطبقي كالقلب في الجسم : انه يحافظ باستمرار على المشهد المنظور بابقائه حيا وهو يحييه ويغذيه داخلياً ويؤلف معه نظاما (ص ٢٣٥) .

وثمة ما هو افضل ايضا ، فالشيء هو جوهريا ومـا يترابط مع جسدي (ص ٢٧٢) ، ولكن لاجتناب كل تأويل مادي يقطع ميرلو بنتي باكثر التأويل احتياطية ، لما يسميه (الفيزيولوجيا الحديثة) (- ص ٨٧) يقطع جذرياً احاسيسنا وافعالنا المنعكسة عن محرضها الموضوعي .

اليك ما يقول عن الاحاسيس (ص ٨٩) .

(ان الصفة المحسوسة ، بل حتى حضور او غياب ادراك حسي ما ، ما هما نتيجتان للامر الواقع خارج الجسم) ، ولا يقول لنا ميرلو بنتي في اي كتاب من كتب الفيزيولوجيا الحديثة ، جاء ان احساسنا بلون ما لا علاقة له باهتزازات المحرض الضوئي .

واليك ما يقول في الافعال المنعكسة (ص ٩٤) : (الفعل المنعكس لا ينتج عن المحرضات الموضوعيـــة) . ونظرة خاطفة الى أسماء المراجع التي اثبتها في مؤلفه تبين لنا في الواقع ان ميرلو بنتي لا يرجـــع ابـــداً الى بافلوف .

فمن جهة الاحساس كما من جهة الفعل المنعكس ، عند المدخل كما عند المخرج . كل الابواب مقفلة ، والجسم محكم رتاجه ، مقطوع عن العالم الموضوعي .

وبفضل هذه العزلة يستطيع الجسم ان يخضـــع لعلاج فيزيولوجي مؤلف الذاتية الفردية في نهايتها لا يبقى فيه شيء جسماني . وها هو مستعد لاتمام رسالته ، ان يعرفنا الى (عقدة الجوهر والوجود) : (ص ١٧٢) ، وهو حقـــا الوسيط الروحاني او بتعبير اصح (المعلم جاك) . للطريقة الظاهراتية ، التي تقوم كما يقول لنا المؤلف (ص ١٨٤) في (تأكيد ان كل عمل بشري له معنى ويحاول ان يفهم

الحادث بدلا من ربطه بشروط آلية .)

فالجسم في نظر ميرلو بنتي هو نوع من صارية المذياع تتيح لنا التقاط رغبات عالم حيث كل ما فيه ، في الواقع ، مليء بالارواح .

يقول ميرلو بنتي (ص ٣٦٩) . (ان معنى شيء من الاشياء يقيم في هذا الشيء كما تقيم الروح في الجسد). وان يكون للكائن الحي جسم معناه الاتصال بوسط معين، والاختلاط ببعض المشروعات والاندماج فيها باستمرار) (ص ٩٧)

او ايضا (يعبر الجسم عن الوجود الكلي ، لا بما انه مصاحبه الخارجية ، وانما لان الوجود يتحقق فيه ، وهذا المعنى المتجسد هو الظاهرة المركزية التى الجسم والروح ، الرمز والدلالة ، هي هيئاتها المجردة (ص ١٩٣) .

وهنا نقترب من النتيجة الاخيرة : الجسم هو الوجود الكلي ، ولكن الجسم انما هو انا ذاتي ، ان الذاتية بتعبيرها الافضل . وها قد اعدنا بفضل تحويل الجسم ، الى المثالية الذاتية .

(يقول ميرلو بنتي ملخصا مجمل رأيه حول هذه النقطة (ص ٤٦٧)

(ان وجودي ذاتية لا يؤلف الا شيئا واحدا مع وجودي كجسد ومع وجود العالم) .

لقد اقفلت الدائرة ، لقد انطلقنا من المثالية الذاتية ، وبعد ان اتبعنا الجسم في جميع تحولاته وتناسخاته ، عدنا الى المثالية الذاتية ولكن الى شكل منحط من اشكال المثالية الذاتية ، أليس للعالم من وجود الا بي ، ولكنه مأهول لا بالافكار الواضحة وانما بالنيات والمعاني ، وهذه عودة الى نمط من الانيمسم النعلة .

ولكي نقيس مبلغ انحطاط هذه المثالية التي لم نعد نجرؤ ان نذكر اسمها ، يكفي ان نرى كيف يضع ميرلوبنتي نفسه بالنسبة الى ديكارت وكانت .

ان ميرلو بنتي مضطر اولا بسبب حاجات قضيته ، الى ان يعطي « للكوجيتو » (انا افكر) تأويلا مغلوطاً من الناحية التاريخية وفقيراً من الناحية الفلسفية .

يقول ميرلوبونتي (ص ٤٢٣) :

« ثمة حقيقة نهائية في العودة الديكارتية للاشياء أو للافكار الى الأنا . وتجربه الاشياء المتعالية نفسها ليست ممكنة الا اذا كنت احمل وكنت أجد في ذاتي مشروعها ، وهنا ايضاً يقع التباس الكلمات عملية عجيبة .

اولا :

تحت غطاء (الانا) يضع ميرلوبونتي بدلا من « الأنا » الديكارتي المعجون عجناً بالافكار الواضحة « أنا » علم الظاهرات مشاريعه ، وثباته ، ومعانيه .

ثانيا :

« العودة المزعومة إلى « الأنا » ليست عن ديـكارت إلا « المنيهة المثالية » من فكر سوف ينتشر في العالم الموضوعي في حين أن هذه العودة في « علم ظاهرات الادراك الحسي » هي نهاية ينزع إلى إذلال « العالم الموضوعي » وأنكاره ، هذا العالم الموضوعي ذاته الذي ديكارت يعطي الفلسفة مهمة هي السيطرة والاستيلاء عليه .

ومن ناحية ثانية ، صحيح ان فلسفة ديـكارت تعرض علينا تسوية بين المثالية والمادية ، ولكن هذه التسوية تصبح عند ميرلوبونتي تشويشاً خالصا ..

يقول (ص ٣٤١) : ان الكوجيتو الحقيقي ليس هـو خلوة الفكر بفكر الفكر : انهما لا يلتقيان إلا من خلال العالم) وسبق أن أعلن في مقدمته (ص ٨) : الكوجيتـه انه يحذف كل نوع من انواعها المثالية ،باكتشافها ذاتي بوصفي كائناً في العالم » .

إن وجهتي نظر ديكارت : وجهة نظر الكوجيتو ، يعني الفكر الذي يجهد ليدرك ذاته – وبتعابير اخرى : النظرة المثالية – ووجهة نظر العالم الموضوعي يعني :

عالم موجود خارج فكري ، وليس في حاجة الى فكري كي يوجد – وبتعابير اخرى النظرة المادية – .

إن وجهتي النظر هاتين هما متناقضتان ولا شك ، وديكارت بوضعها احداهما الى جانب الاخرى إنما يقوم فعلاً بتسوية ولكن فضله هو أنه ميز بوضوح بين الذات والموضوع في حين ان ميرلو بونتي يشوش جميع الافكار .

يقول (ص ٤٩١) : « إن العالم لا يمكن ان ينفصل عن الذات ، التي ليست إلا مشروعاً للعالم ، والذات لا يمكن ان تنفصل عن العالم ولكن عن عالم هو نفسه الذي يصوره بالذات هي كينونة في العالم ، والعالم يظل ذاتياً . الخ ...

وليست هذه وسيلة لتخطي المشكلة إما المثالية وإما المادية (الصفحة ذاتها) ، وانما فقط وسيلة للخلط بينهما : ان خلط المفاهيم ليس وسيلة للتخطي الا بمقدار ما يكون السير الاعرج بالساقين وسيلة للسير القويم .

وموقف ميرلو بونتي من « كانت » هو تماماً على هذا النحو ايضاً من الدلالة . يقول ميرلو بونتي (ص ٢١٠ — ٢٤١) إن النزعة الذهني يمثل تقدماً في التقاطه الوعي ... فالعالم يصبح الشيء المترابط لفكر عن العالم ولم يبق موجوداً الا بمثابة عنصر مؤلف ، ومع ذلك يبقى صحيحاً القول بأن النزعة الذهنية هي ايضاً تقدم نفسها للعالم على انه جاهز مسبقاً .

هذا هو المأخذ الذي يؤخذ على « كانت » . لقد قام

بخطوة اولى نحو المثالية – العالم المترابط بالفكر – ولكنه ارتكب خطأ – في زعم مؤلفنا ميرلو بنتي – وهو انه لم يلق الى البحر بالعالم الموضوعي . وهو يأخذ على كانت انه يستند الى القوانين العلمية لهذا العالم الموضوعي عنـــد ميرلو اونتي ، بعـــد انكار العالم ونزع صلاحيته منه تذوب (مقولات) نقد العقد الخالص .

وماذا يعطينا ميرلو بونتي بدلا من الاستنتاج التصعيدي؟ بانـــه يقوم لنا الفكرة الجشطالية البائسة ، فكرة الصورة والخلفية ؟ لقد افرغت المثالية النهجية بكل بساطةمن توانها العقلية .

ولذا الان كيف يتخلص ميرلو بونتي من عدوه الرئيسي العالم الموضوعي ، يعني عالم الحس المشترك السليم والعلم .

تتألف العملية من مراحل ثلاث :

اولا :

مفهوم لا ادري ولاهوتي للاحساس .

ثانيا :

نظرية مثالية للمكان والزمان .

ثالثاً :

تمويه السببية باسم الغائية والتصعيد .

ليس الاحساس في نظر ميرلو بنتي كما في نظر جميع

المثاليين صلة بين العالم الموضوعي وبيننا ، وانما هو مناسبة عرض ، والغاية المتوخاة هي تبديد الواقع الملموس مجازاً والوسيلة الى ذلك انما هي الحط من قيمة الاحساس ،

وتبدأ هذه العملية عند مستوى الفيزيولوجيا والمسلمة المثالية تتخذ صورة الأمه ، صورة الانذار النهائي ، فيصدر ميرلوبونتي قراره قائلاً (ص ١٧) على العالم الفيزيولوجي ان يتخلص من الفكرة المسبقة الواقعية القائلة بأن جميع العلوم تستمد من الحس المشترك السليم .

وعلى العالم أن يتعلم نقد فكرة عالم خارجي في ذاته بما ان الوقائع هي نفسها توحي اليه بأن يترك فكرة الجسم بوصفها ناقلة صور

والحق أننا نستطيع التساؤل عما هي الوقائع ، التي تقدم للعالم هذا الايحاء الغريب ، والواقع الوحيد الذي ان وضع وصفاً جيداً الذي يستطيع أن يقترح علينا ، هذا التخلي ، انما هو جهل علم الفيزيولوجيا ، أو تجاهله بصورة عامة ، والفيزيولوجيا البافلوفية بصورة خاصة .

ان ازدراء كهذا هو وحده الذي يسمح بأن يؤكد ببرودة ان الجهاز الحاسي كما يتصوره علم الفيزيولوجيا الحديث . لم يعد صالحاً يقوم بوظيفة جهاز موصل تلك التي كان ينسبها إليه العلم التقليدي ص ١٥) .

مساكين علماء الفيزيولوجيا أولئك الذين كانوا من السذاجة

بحيث كانوا يعتقدون ان كل اهتزاز فيزيائي معين مرقم ، إنما تطابقه ظـــاهرة نفسية احساس باللون الاحمر والازرق مروراً بسلسلة معينة من الظاهرات الفيزيولوجية .

إن ميرلو بونتي قد غير هـــذا كله لحسن الحظ ، لقد قضى والحق يقال على هذه السلسلة السببية ، اولا ، الفيزياء – في زعمه – على خطأ ، حين تحدد الالوان والمشاعر تحديداً رياضياً . « الاحساس الخالص تجربة صدمة غـــير مجيزة (ص ٩) .

وهكذا رفض حكم الفيزياء ورد .

ثم يأتي دور الفيزيولوجيا (ص ١٤٠) :

« ليس الادراك الحسي مديناً بشيء لما نعرف عن العالم من ناحية اخرى عن الموضوعات كما تصفها الفيزياء ، وعن الحواس كما يصفها عن الحياة .

الادراك الحسي لا يقدم نفسه اولا على انه حدث واقعي في العالم نستطيع ان نطبق عليه مثالا معقوله السببية ، وانما كإعادة خلق للعالم ، او إعادة تكوين له في كل هنيهة ، إذا كنا نؤمن بما عين للعالم ، بالعالم الفيزيائى (الطبيعي) ، بالمحرضات بالجسم كما تمثله لنا الكتب ، فانما كان ذلك اولا لان عندنا حقل ادراكي حسي حاضر ومالي ، كأننا هنا في حلم . فالعالم الفيزيائي وماضيه وجسمنا والمحرضات التي

يتلقاها من هذا العالم الخارجي ، انما هي مسألة « ايمان » في نظر ميرلو بونتي .

ومن اجل ملاشاة العالم الموضوعي ، احلوا محل المعطي المحسوس نسبة او علاقة ، شكل على خلقية ، هو المعطي الابسط الذي نستطيع الحصول عليه (ص ١٠) .

هذه هي القضية الوحيدة للنظرية الجشطالية ، وكان بني الصفة المحسوسة الخام ، والجسم الحي لا يوجد حتى منذ المستوى البيولوجي ، منذ الابيض البسيط ، حقل من القوى ، وكان اللون الاخضر للاوراق لا يجتذب ، كأنه قطعة مغناطيس ، الفعل المنعكس لارقام العشب عند الحيوان العاشب ، وكأن هذه الدلالة الحيوية البيولوجية للصفة المحسوسة بالنسبة الى الجهاز العضوي لا تؤلف (في مستوى التروبيسم ، ثم الفعل المنعكس) ما قبل تاريخ الاحساس .

هذا الماقبل التاريخ البيولوجي هذا الذي أغفله ميرلو بونتي وفي سبيل حاجات القضية المثالية ، كان لا يجب الابتداء بمدلولات بيولوجية ، تعبر عن ذاتها بتعابير من سببيه ، وانما اقتضى البدء بمدلولات نفسية ، يعبر عنها بتعابير غائية . يقول ميرلو بونتي (ص ١١) يكتشف التحليل في كل صفة مدلولات تسكنها .

وينبغي ايضاً ان يأتي كل شيء من الداخل ، وان

يكون الذاتي هو اول ، حسب مسلمات مثالية ، وان الصفة المحسوسة بل متول مدرك حسي ما او غيابه ليست نتائج الامر الواقع فاخرج الجسم (الجهاز العضوي) وانما هي تمثل الطريقة التي يواجه بها المحرضات (ص ٨٩) .

خطوة جيدة ايضاً في اتجاه المذهب الذاتي الفردي ، ونصل الى هذه الصيغة اللذيذة (ص ٢٤٥) ، ما يتبنى جسمي وضعية اللون الازرق ، احصل على شبه حضور اللون الازرق . وهذا تماماً كما لو قلنا ان الغياب هو مثل شبه ـ الحضور . ولننصف ميرلوبونتي ، فكاتبنا قد قال حقاً « شبه » ، وهو يشرع هذا « الشبه » في صيغة تستحق ان نتأملها « ص ٢٤٨ » ويعيد المحسوس إلى ما أعرته إياه ولكنني منه أخذته . هنا تبلغ الطريقة الظاهراتية من وجهة معينة ، مرتبة السمو وتمنعنا من كل تعليق .

وسوف نكتفي فقط بأن نبحث بعد هذا كله ، عما بقى من محسوس ففي نهاية متاهة الحس الظاهراتية ، زى الاحساس قد يبدو بكامله مجازا . فهو ليس إلا مجرد افتراض يبتدع لانقاذ وهم العالم الموضوعي (ص ١٢) : ليس الاحساس محسوساً . نحن نصل الى الاحساس حين تفكيرنا في مدركاتنا الحسية ، نريد التعبير بأنها ليست من صنعتنا مطلقاً .

انه الطريقة الخادعة حتما ، التي يتمثل بها ذهن ما تاريخه الخاص (ص ٤٦ - ٤٧) .

اما بخصوص الطريقة الصحيحة تاريخ ذهننا ، فعلم ظاهرات الادراك الحسي ، يقدم لنا سره المكنون (في الصفحة ٢٤٨ التي نوهنا بها سابقاً) ، هذه الهبة التي قدمها الى الواقع مع ما أعرته واياه ، لانني أخذته منه .

ها نحن تقريباً في حدود المضحك ، فقد عدنا الى اكثر المذاهب اللاأدرية تقليدية ، واكثرها تفاهة .

ونظرية المكان والزمان ترجع الى مجموعة الحجج اللاأدرية والمثالية نفسها .

لقد طرحت المثالية والمادية قضية المكان بدون تمويه . هل أنا في المكان ، أم ان المكان هو في ؟

وانما هذا التعارض الصريح هو الذي يجهد ميرلوبونتي لتخطيه بالظلامية المنهجية التي تميز طريقته ، ويسأل ميرلوبونتي (ص ٢٨٢) هل صحيح أننا موجودون أمام المشكلة ، اما الادراك الحسي للاشياء في المكان . واما اذا فكرنا ، واذا كنا نريد أن نعرف ماذا تعني تجاربنا الخاصة ، أن نفكر المكان بوصفه النظام الذي لا يتجزأ لأفعال الترابط التي يتمها ذهن مكون وبلهجة ظافرة يخلص مؤلفنا مستعينا بنجدة كبرى من المذهب الجشطالي ، طبعاً بعد ان يخرج المادية

من الساحة (ص ٢٩١) : كل شيء يحيلنا الى الارتباطات العضوية بين الذات والمكان ، الى هذا الادراك عند الذات لعالمها وهو مصدر المكان .

وهذا يعني بالعربية الفصحى ، بدوني لا يستطيع المكان ان يوجد ، وهذا ما يعبر عنه ميرلوبونتي بلسانه حين يقول: « الزمان مرتكز على عرضيتنا » (ص ٢٩٤) .

وهنا أيضا ها نحن قد عدنا الى مواقف المثالية التقليدية ليس ثمة مطلقا زمان ولا مكان في الاشياء ؛ ان ذهني هو الذي ينشرهما .

صحيح ان هذا المكان مختلف جداً عن المكان الكانتي لقد فقد جهازه العلمي ، لقد جرد من هيكله .

يقول ميرلوبونتي (ص ٣٣٢) ، ان المكان الواضح هذا المكان الشريف حيث الاشياء كلها لها الاهمية نفسها ، والحق نفسها في ان توجد ، هو ليس فقط محاط وانما مخترق من جميع الجهات بمكانية تكشفها لنا تغيرات الموت .

هذا المكان الشريف الذي يعامله ميرلوبونتي بتواضع عجيب هو المكان الذي تعنى به الرياضيات والفيزياء . اما في نظر ميرلو بونتي فلم يعد الا شطراً من مكان المصاب بالهلوسة . إنه ليس الا شطراً فقيراً تماماً كما ان التفكير ليس إلا عملية افتقار للشيء الاصيل الذي لا يعكس .

وهنا أيضاً الفرق الوحيد بين مثالية (كانت) والميرو بونتي . هو ان هـذا الاخير قد القى بالعنصر العقلي في البحر . وهذه مثالية في حالة انحطاط .

ويجب ان نعترف لكي نكون منصفين ، بأن ميرلو بونتي لا يقول : الذهن « فروبنسون » الذاتي الفردي قد وجد خادمه جمعه . فالجسم وهو عند ميرلو بونتي نوع من الجسم السماوي (والنجمي ، الكوكبي) ، صالح جداً كما قلنا ، لكي يلعب دور خادم الذات بما انه يتوحـد وذاتيتنا .

يقول ميرلو بونتي (ص ٣٣١) : ان السببية كالمكان قبل ان تكون علاقة بين الاشياء ، هي مرتكزة عـلى علاقتي بالاشياء » (ص ٣٣١) . ان فرويد أسهم في تنمية الطريقة الظاهراتية بتأكيده ان كل فعل بشري له معنى . وبمحاولته ان يفهم في كل شيء الحـدث الواقعي بدلا من ربطه بشروط آلية (ص ١٩٥) . وإذا أخذنا بعين الاعتبار بأن ميرلو بونتي يخلط بصورة منظمة بين السببية وبين الحتمية الآلية يظل ما يلي :

إن خاصة الطريقة الظاهراتية انما هي التخلي عن السببية لمصلحة غائية « الدلالات » و « النيات » .

ويصرح ميرلو بونتي عرضاً مستعيداً لحسابه ما كان يسميه

بول لانجان « التطوح الذهني » لمذهب اللاحتمية في الفيزياء . الذي فضح استبداده لويس بردي في فنه مدة وجيزة ، نقد ذاتي جريء : « ان النقد الحديث للعدم » قد بين ما فيها من شيء « بناء » . (ص ٤٤٨)

وميرلو بونتي يؤكد مرتكزاً على هذه التفاهمية ، ثقة في ما في معرفتنا ... ان الوجود هو غير معين في ذاته بسبب تكوينه الاساسي ... نحن نسمي تصعيداً الحركة التي لم يستعيد الوجود لحسابه وبغير امراً واقعياً (ص ١٩٧) .

وهذا النفي للنسبية هو مسلمة ضرورية لنظرية الحرية عند ميرلو بونتي مثل (الكليامن) عند ابيتوروس .

هنا تفضي نظرته المعرفة الى قضايا الحرية والتاريخ ، وهنا نستطيع ان ندرك لماذا بسط كل نظريته في المعرفة لكي يفسح مجالا واضحاً لمفهوم للانسان ، ولحريته ولتاريخه يسمح بالنجاة من المفهوم العلمي والثوري ، من المفهوم الماركسي اللينيني للتاريخ .

فلنفحص اذن ، النتائج العملية المترتبـــة على مذهب ميرلوبونتي هذا ، ونستطيع ان نوجزها في القضايا الخمس التالية :

اولا :

الواقع هو للوصف وليس للتحويل .

ثانياً :

ليس ثمة تاريخ الا بالنسبة الى الذات التي تحياه .

ثالثاً :

ان مفاهيم الطبقة الامة ليس لها من دلالة موضوعية .

رابعا : :

العمل الثـــورى لا يمكن إذن ، أن يستند الى السببية الموضوعية انه يشبه الفنان .

خامساً :

الحرية قوة من دون الفرار انها تصعيد

●

أولا :

ان علم الظاهرات يعين لنفسه مهمة وصف التجربة ، نظراً طبعاً لان هذه التجربة ، ليست تجربة الحس المشترك السليم ولا تجربة العلم .

ومنذ مقدمته (ص ٤) ينبهنا ميرلوبونتي ، الواقع هو الوصف وليس للانشاء ولا للتكوين ،

ثمة معنى : ينبغي ان يكتشف في الاحداث التاريخية ، دائماً كما يكتشف الارتباط الصغير بين الاوراق .

والتاريخ هو أيضاً أحجية . ان جميع المراحل التاريخيه تبدو كتظاهرات وجود واحـــد او كحوادث في مسرحية

واحدة ، ونحن لا نعرف اذا كانت لها نهاية حل (ص ١٤).

لنا اذن ، أن نحل طلاسم « معنى » الماضي . اما تشييد المستقبل بثقة عازمة فمستحيل علينا ، بما أننا لا نستطيع الارتكاز على سببية موضوعية .

علم الظاهرات هو كشف للعالم . والفلسفة الحقيقية هي ان نتعلم مجدداً رؤية العالم « ص ١٦ من المقدمة » .

مهمة « علم الظاهرات » هي كشف سر العالم وسر العقل . (الصفحة ذاتها) . وهكذا نظل هنا دائما في مستوى تفكير او انعكاس بينا في مكان آخر ، ما فيه من اعتباطية . كما نبقى هنا في مستوي التقاطة وعي . فنحن محصورون في « دلالات » العالم ، وبدون أن يكون لنا ممسك عليه . بما ان العالم الموضوعي الذي يجعل لنا العلم سلطة عليه هو « عالم متخطي » .

ومن هنا كان الطابع الكلامي الصرف لصيغ مثلى . نحن نأخذ بأيدينا الخ ... (ص ١٦ من المقدمة) فان انكار العلم والعالم الموضوعي ، ونزع الصلاحية منهما قد جردنا من سلاحنا .

هكذا أرجعنا قرناً الى الوراء ، الى ما وراء . قضايا عن مورياخ . الى فلسفة ليست الا نمطاً من انماط تفسير العالم وليس تغييره .

ثانيا :

ذلك لانني كيف أستطيع تغيير عالم ليس له حقيقة واقعية موضوعية . يعلن ميرلوبونتي (ص ٤١٦) ان ما هو اجتماعي ليس موجوداً كموضوع ، وبصيغة الغائب ، ليس ثمة تاريخ الا بالنسبة للذات التي تعيشه ، بعد المذهب الذاتي الفردي من الناحية الفيزيولوجية . هـا هو المذهب الذاتي الفردي على صعيد التاريخ تماما كما حصل لسديم لابلاس ، ليس عصر بيركليس الا زوايا ضميري . وكالسديم ليس لعصر بيركليس وجود بدوني .

فيا ايتها الشمس ! لا تفخري بضوئك كل هذا الفخر ذلك لانك لن تبقي موجودة اذا أغمضت عيني !

هكذا يتكلم ميرلوبنتي فليحكم القارىء ، يقول « ص ٤١٥ » .

« ان الوعي الموضوعي والعلمي للماضي وللحضارات سوف يكون مستحيلا ، اذا لم يكن لدي بها اتصال تقديري افتراضي على الاقل . لو لم يكن موضع الجمهورية الاثينية ، او الامبراطورية الرومانية معلماً في ناحية ما على تخوم تاريخي العالم ، لو لم تكن مستقرة ثمة تماماً كافراد من البشر ينبغي التعرف اليهم ، غير معينين ولكن موجودين سابقاً .

لو كنت لا اجد في حياتي الكيانات الاساسية للتاريخ يكرر ميرلو بونتي في مستوى التاريخ ودلالته ، العمليات نفسها التي قام بها في مستوى « الظاهرة » .

نحن نعطي للتاريخ معناه ، ولكن ليس دون ان يقترح علينا التاريخ نفسه هذا المعني (ص ٥١٨) ، وهنا تتكرر العملية الوعرة نفسها عملية اعارة منحنا اياها ذلك الذي اعطيناه اياها لانه عهد بها اليها ، الخ ...

وهنا تناقض جديد قد تخطى ، فميرلو بونتي يخصص قائلا بابهة الظفر (الصفحة ذاتها) :

« ان وقوفنا موقف المتدبر المتطلع الى الماضي اذا لم يحصل على موضوعية مطلقة ، ليس له ابداً الحق في ان يكون اعتباطيا » .

وانما يهاجم ميرلو بونتي المادية التاريخية ، انطلاقاً من هذه الاسس ، ويحدث الهجوم بصورة غريبة ، عند نهاية فصل عن الجسم بوصفه كائناً داحس ، وبحجة اقامة مقارنة بين التحليل النفسي والمادية التاريخية ، زاعما ان هذه الثانية تضخم مفهوم الاقتصاد كما يضخم فرويد مفهوم الغريزة الجنسية (ص ٢٠٠) :

وتتألف العملية من عدة فترات :

اولا :

يحتج ميرلوبونتي على الخلط التام بين المادية التاريخية وبين (مذهب حتمية اقتصادية) .

يقول (٢٠٠) :

« ليست المادية التاريخية سببية مقتصرة على الاقتصاد » وهذا صحيح ولكن تحت ستار هـذا التمييز الضروري . يهرب ميرلوبونتي مفهوما انتقائياً عن التاريخ ، وهو يرجع المادية التاريخية الى هذا التأكيد بأن الانسان لا يصنع – معاً – عدة تواريخ : « تاريخ اقتصادي ، وآخر اميريولوجي الخ ... » . وانما هو يصنع تاريخاً واحداً مختلف جوانبه متعلقة بعضها ببعض خاضعة بعضها لبعض .

انها أي المادية التاريخية ، لا ترجع تاريخ الافكار الى التاريخ الاقتصادي ، ولكنها تعيد وضع الافكار في التاريخ الوحيد الذي يعبر عنه كلا التاريخين . وهو تاريخ الوجود الاجتماعي « الصفحة ذاتها » .

لقد ارتكب لابريولا هذه الغلطة منذ اكثر من نصف قرن فقال « المادية التاريخية هي المفهوم العضوي للتاريخ »

وما هو مطموس في هذه القضية ، انما هو الدور الحاسم للاقتصاد في آخر تحليل . لقد سبق أن فضح انجلس في رسالته في ٢٧ تشرين الاول ١٨٩٠ الى كونرادت شميدت في آن واحد التفسيرات الآلية ، والتفسيرات الروحية ، لتعاليم ماركس .

وخلص انجلس قائلا : « وما يفتقر اليه هؤلاء السادة

جميعاً اما هو الديالكتيك . إنهم لا يرون دائماً إلا السبب هنا ، وهناك النتيجة . ولا يرون ان هذا تجريد فارغ ، وأن في العالم الواقعي لا يوجد ثمة ، أمثال هذه المتناقضات القطبية الغيبية إلا في الازمات ، ولكن ان كل مجرى الاشياء العظيم يحدث في شكل فعل ورد فعل من القوى بدون شك ، جد متساوية — فيها الحركة الاقتصادية القوة الاشد بكثير من سواها ، والاكثر اولية والاكثر حاسمة ، وان ليس ثمة شيء مطلق ، وان كل شيء هو نسبي . كل هذا — ماذا تريد ؟ انهم لا يرونه .

ففي نظر هؤلاء لم يوجد هيغل (١) ، ولا يمكن ان نحدد بأفضل من هذا التحديد موقف ميرلو بونتي الذي يتوجح بين النزعتين الآلية والروحانية مع مواقفه « إما ... وإما » . (ص ٢٠٠) والذي يتخطاها على طريقته يعني بمذهب ظلامي انتقائي . « إن النظرية الوجودية في التاريخ هي نظرية مهمة ؛ ولكننا لا نستطيع ان نأخذ عليها هذا الابهام ، ذلك لانه موجود في الاشياء . (ص ٢٠١) .

هنا يكمن سر النزعة الانتقائية عند ميرلو بونتي وهو يقوم في ان ينشر في الاشياء ، التباس فكره وابهامه والابهام هنا يقوم إزاء الماركسية . وبما انه على كل حال يصعب الانكار بأن الثورة الفرنسية البورجوازية عام ١٧٨٩

(١) دراسات فلسفية — لماركس وانجلس — المنشورات الاجتماعية ١٩٥١ (ص ٦٥) .

وثورة عام ١٩١٨ الاشتراكية نتجتا عن علاقات طبقية يقوم ميرلو بونتي بهذا التنازل . انما فقط عند دنو ثورة ما يلاحق التاريخ الاقتصاد ، (ص ٢٠١) .

ولكن ميرلوبونتي يثأر للتراجع المفروض على مفهومه المثالي للتاريخ وذلك بطريقتين :

اولا :

بالتصريح بأن الثورة هي بالنسبة الى المجتمع كنسبة المرض الى الفرد ، فكما ان المرض في حياة الفرد ، يخضع الانسان لوتيرة جسده الحيوية ، كذلك في وضع ثوري .. تظهر علاقات الانتاج « ص ٢٠١ » . وبعدئذ يدخل ميرلوبونتي من النافذة المثالية التي طردها من الباب .

يقول « الصفحة ذاتها » . والمخرج رهن بالكيفية التي تفكر بها القوى الموجودة في الساحة بعضها ببعض . وهكذا تصبح الثورة ضرباً من ضروب لعبة البوكر .

وعلى هذا النحو أعدمت المادية التاريخية بملاحظة بسيطة لا تشبه الدحض الا شبها ضئيلا .

ولكن لم تكن هذه لا غرفة الانتظار ، فالنتائج النهائية للكتاب تعرض علينا الرصيد العملي للنظرية الميرلوبونتيه في المعرفة : نزع هيكل التاريخ وتجريده من كل تركيب موضوعي يتيح لنا التأثير فيه .

لقد مهدت نظرية المعرفة الطريق تمهيدا حسناً لقد كان الامر الجوهري المهم هو تجريد التاريخ من موضوعيته ، وقد سبق ان نبهنا ميرلوبونتي الى ذلك « ص ٤١٦ » ، ان ما هو اجتماعي لا وجود له كشيء موضوعي .

وقد وضع ميرلو بونتي هذا التأكيد بمثال تاريخي : ان معركة واترلو الحقيقية ليست إلا في ما يرى فابريس (١) . لا في ما يرى الامبراطور نابليون ، ولا في ما يرى التاريخ فيها ، انها ليست موضوعا يمكن تحديده (الصفحة ذاتها) . ولماذا كان هذا ؟ فلنترك لميرلو بونتي فابريس ونابليون ، ولنضع الاسباب التي من اجلها ، يرفض للمؤرخ امكان الوصول الى الحقيقة : « انه لا يصل الى المعركة نفسها ، بما انه في اللحظة التي جرت ، كان مخرجهـا محتمل الحدوث .

ولان هذا لم يعد حين يرويها المؤرخ ان الاسباب العميقة للهزيمة والاحداث العرضية التي سمحت لتلك الاسباب بان تعمل عملها كانت في حادث واترلو المفرد حاسمة تماماً بنفس قوة الحسم ، ولان المؤرخ يضع مجدداً الحدث في موضعه من الخط العام لتدهور الامبراطورية (ص ٤١٦) وما يأخذه ميرلوبونتي على المؤرخ هو ان هذا يرتب الاسباب ، يعني انه يأخذ عليه بالضبط ما يسمح له بان يقوم بتاريخ

---

(١) أحد أبطال ستندال – في رواية الأحمر والأسود – وكان متأرجحاً بين الكهنوت والجيش .

علمي ، وهذا ما يجد ميرلو بونتي لكي لا يراه في المادية التاريخية .

وهنا مفهوم التاريخ عند ميرلو بونتي ليس متخلفاً اذا قيس بمفهوم ماركس وانجلس وحسب ، وانما هو متخلف اذا قيس بمفهوم مونتسكيو الذي ادرك هو نفسه العلاقات بين الاسباب العامة والاسباب العرضية ولم يكن يخلط بينها الى درجة اعلانها « حاسمة على حد سواء » كتب مونتسكيو — ثمة اسباب عامة تفعل في كل مملكة فترفعها ، وتحافظ عليها أو تؤدي الى تدهورها . ان جميع الاحداث الطارئة خاضعة لهذه الاسباب ، فاذا كانت مصادفة معركة ما ، يعني سببا خاصا ، قد دمر الدولة ، فثمة سبب عام ، اوجب على هـذه الدولة ان تهلك بمعركة واحدة .

ثالثا

ولكي ينزع من التاريخ كل بنية موضوعة تتيح لنا التسلط عليه ، يجهد ميرلو بونتي لنفي الواقع الموضوعي للطبقات والامم .

ونجد مجدداً في البدء الادعاء نفسه بتخطي المثالية والمادية المعرفتين هكذا وان الفكر الموضوعي (وهذا نعت آخر حجول للمادية) يستنتج الوعي الطبقي من شروط الحياة الموضوعية للبروليتاريا . أما التفكير المثالي فيرد وضع البروليتاريا الى مـا يأخذه عنه البروليتاري من وعي

(ص ٥٠٦) وهذا ما كان يعد بأن يكون واضحاً : هل الوعي يسبق الوجود ام الوجود يسبق الوعي ؟

ولكن ميرلو بونتي يعود فيغرقنا في خليط من الافكار الانتقائية . يقول لنا (ص ٥٠٦) فلنعد الى سؤال مع رغبتنا ليس في اكتشاف اسباب لقطة الوعي ... وليس شروط امكان هذا الوعي ... وانما وعي الطبقة نفسها ... هذا ما يسميه ميرلو بونتي منهجا وجوديا . هذا المنهج لا يهتم الا بالاسباب ولا بشروط امكان لقطة الوعي ، فهدفه هو تحويلنا عن هذا البحث الذي يسمح لنا بالمساعدة على لقطة الوعي هذه والتعجيل بها ، وهذه هي مهمة الماركسية اللينينية ، وذلك من اجل تغيير العالم . ان طريقة ميرلو بونتي الوجودية هي احدى الالف طريقة وطريقه لصرفنا عن تغيير العالم ، وتجريدنا من سلاحنا لمحاولة تأخير هذه التغيرات ، وهذه الطريقة تقود المؤلف الى هذه المسلمة :

« ليس الاقتصاد ... هو الذي يمنحني صفة البروليتاريا » (ص ٥٠٦) وهذه قضية علمية حللها ماركس منذ اكثر من قرن وميرلوبونتي يريد تعريفها من مضمونهـــا الموضوعي .

كان ماركس يعرف البروليتاري ، من هو شغيل .

اولا :

الذي لا يملك وسائل الانتاج .

ثانياً :
الذي هو حر في بيع قوة عمله .

ثالثاً :
الذي ينتج القيمه الزائدة .

ويضيف ماركس ان هذا كله لا يتعلق بالوعي الذي يحول البروليتياري عن وضعه . ان الطبقة موجودة في ذاتها قبل وجودها لذاتها الوجود يسبق الوعي .

يستبدل ميرلو بونتي بهذه المفاهيم العلمية الموضوعية ما يسميه انجلس « خليطاً انتقائياً » .

يقول ميرلو بونتي (ص ٥٠٦) ، عندي نمط معين من الحياة ، بل ان التحليل الذي يقوم به اللقطة الوعي ينهض ضد مقدماته .

يسمع العامل عمال آخرين حصلوا بعد اضراب ما على زيادة في الاجور . . ان العامل الزراعي المياوم غالباً يكون لم ير عمالا انه لا يشبههم .

هكذا يقول لنا ميرلو بونتي (٥٠٧) ويشرح لنا الاول يكتسب الوعي الطبقي بأسهل مما يكتسبه الاخر . وهكذا فميرلو بونتي يعترف مرغماً بان تمركز العمال في المصانع الكبرى بالمدن ، ووحدة اوضاعهم - الشروط الموضوعية - يعجل بلقطة الوعي ، وان التبعثر الريفي

واختلاط الشروط – شروط موضوعية اخرى – يجعل لقطة الوعي هذه أصعب ..

هذه هي الشروط الموضوعيه التي تجعل انه يوجد في حزب ثوري من العمل اكثر مما فيه من البورجوازية (٥٠٩) الطبقة ليست لا ملاحظة ولا مقررة بموسم . وهو لا ينجح في الخروج من هذا التعارض الغيبي ؛ الذي تحدث عنه انجلس : « اما ان الوعي الطبقي يستنتج آلياً من واقع الطبقه الموضوعي ، واما ان الوعي يخلق الواقع .

اما الآلية واما المثالية . وميرلو بونتي ينسب الى نفسه بثمن بخس ، فضل « تخطى » هذا التعارض الذي حلته المادية الديالكتيكية منذ زمن طويل جداً ، ولكن أليس الامر الجوهري المهم في نظر ميرلو بونتي هو ان يجد مخرجاً لا يكون هو الماركسية .

ثالثاً :

ومنذ هذه اللحظة ، ماذا يصبح العمل الثوري ؟ انه بعدم استناده الى اية سببية موضوعية ، اصبح شبيهاً بالابداع الفني ، الحركة الثوريه ، شأن عمل الفنان هي مقصد يخلق هو نفسه أدواته ووسائل التعبير عنه (٥٠٨) هكذا لم تعد الثورة الحل التاريخي لتناقض موضوعي .

انها عمل ما لست أدريه من آلهة خلاقين يبرزون من سواد جماهير التي يقتصر عملها ، على انها كانت تنضج فيها

حركات التمرد : ان الثورة هي في خـــاتمة مساعيهم وفي مشروعاتهم في شكل « يجب ان يتغير هذا » (ص ٥٠٨) هكذا يقول لنا ميرلو بونتي ويضيف (الصفحة ذاتها) ، ان هؤلاء وأولئك يفضون الى الثورة التي كانت قد تفزعهم لو وضعت فهم ومثلت .

وفوق هجمة التقطيع هذه ، يدقق المؤلف ان الثورة التي يوماً فيوماً من توابط غايات قريبة بغايات أبعد منها (الصفحة ذاتها) .

ان واقع نشر مؤامرة الصمت على مائة عام من الصياغة والاعداد النظري للطلاب الماركسية ونفوذهـــا الى الجماهير الواسعة انما ينم عن النية الاساسية عند المؤلف : إنكار الطابع العلمي للثورة الماركسية ، والطـــابع الموضوعي لتحليلها التاريخي وهذا هو التتويج النهائي لكل المشروع الظاهراتي .

ووصف المثقف الذي يصبح ثورياً ، هو ذو دلالة ايضاً : « يبحث المثقف عن عقيدة تتطلب منه الكثير وتشفيه من الذاتيه (ص ٥١٠) : ولا يمكن ان يعرف بأفضل من هذا التعريف ، انخراط مغامر في القضيه الثورية . فلو كان المثقف لا ينخرط الا لهذه الاسباب الذاتية المحض ، فلا يمكن ان يكون اذن ، الا مغـــامراً يبحث على طريقة مالرو ، عن نشوة مخمورة ذاتية في مغامرة ثورية . وهنا ايضا يذعر ميرلو بونتي، مما يقدم هو نفسه من وصف . فهو يوافق على استثناء

ينحه لينين ، متجنباً هكذا تحليل حقيقة سير المثقف الداخل الى صفوف الطبقة العاملة بادراك حركة التاريخ حسب تعبير ماركس .

ولكن هذا التحليل كان يبدو مستحيلا على ميرلو بونتي لسببين .

اولا :

لانه يريد بالغا ما بلغ الثمن ان نبغي موضوعية الحركة التاريخية ، ثم لانه ينفي ايضا واقع التفكير التشاوري التداولي الذي يقود انسانا الى ان حياته منضوية في الطريق التي اختارها .

يقول ميرلو بونتي (ص ٤٩٨) ، والواقع ان التشاور يلي القرار . وانما عزمي السري هو الذي يبرز المحركات ، ولا يمكن ان نفهم قط حتى ما يمكن ان تكون قوة باعث ما بدون ان يكون ثمة عزم يؤكده او يعاكسه .

ففكرنا اذن وانما يعنيه في نظر ميرلو بونتي هذا الاستعداد المسبق ، الاستعداد العزم اللاعقلاني ، وفي نهاية هذا كله لا يبقى ثمة شيء مطلقاً ، لا يمكن ان يقود عمل الانسان ، فالفكر هو وهم ، كما ان العالم الموضوعي وهم كذلك ، وانها كفلسفة العجز .

خامساً :

من هذا العدم تبرز الحرية . ما هي الحرية اذن ؟

هكذا يسأل ميرلو بونتي (ص ٥١٧) ويجيب طبعاً : ليس ثمة ابداً حتمية ولا ثمة ابداً اختيار مطلق . وكما فعل في القضايا السابقة ، اذا كان ميرلو بونتي يحتفظ حتى النهاية بمعارضته للمذهب الآلي الذي يخلط دائماً بينه وبين المادية . فهو يعود دائماً بعد التواءات عديـــدة إلى مواقف المثالية الذاتية يقول (ص ٤١٣) :

« إنما بالنسبة الى مصيري ان الكون حراً . . . أن احتفظ ازاء كل وضع واقعي بخاصية تراجع . . . وهكذا عدنا الى (الكيان) يعني الى الاختيار المطلق .

وهذا التعريف للحرية يشبه شبها عظيماً تعريف التعالي الذى يورده (ص ١٩٧) سوف نسمي تعالياً هذه الحركة التي بها يستعيد الوجود لحسابه وضعاً واقعياً ويحوله . فالحركة هي تماما اختيار حر متعال . انها تمزق في النسيج السببي .

الحرية « هي قدرة على الفرار » (ص ٢٠١) .

ومن اي شيء إذن ، يتعلق الامر بالفرار ؟ هناك شبح يخيم على اوروبا . . . انه شبح الشيوعية . . . هكذا كان يقول ماترتيخ . ومنذ مائة عام ، ليس ثمة أية نظرية في المعرفة أو عقيدة في الحرية لا تحاول عن وعي او عن غير وعي ، النجاة منه واستخراج روحه الشريرة .

وهذا الجهد يظهر في جميع المناورات الفلسفية تدفع الى العمل للتخلص من مفاهيم الموضوعية والسببية ، فاذا كان ثمة تاريخ موضوعي ، يخضع لقوانين موضوعية ، واذا كانت توجد سببية ، عندئذ هذا التاريخ يشهد باطمئنان بأن تناقضات الرأسمالية تسير بهذا النظام الى هلاكه ، وفي الافق بر شبح الشيوعية .

ان مهمة كل فلسفة تتقبلها البورجوازية وتؤيدها هي اذن ، محددة بوضوح تام ، ان على هذه الفلسفة ان تثبت ان التاريخ العلمي مستحيل ، ذلك لان ليس ثمة واقع تاريخي موضوعي . والقيام بهذا الاثبات يقتضي ان تهاجم الموضوعية بصورة أعم ، يعني ان تهاجم موضوعية العلوم . فيكون كل اكتشاف علمي عظيم جديد مناسبة للاعلان ازمة العلم ، بل الاعلان : افلاس العلم . وسوف يكون الفيلسوف متربصاً لاقل ثغرة مؤقتة تبدو في السببية لينادي « باللاحتمية » ، وقد بلغ من قوة هذا التيار ان عالما من طبقة لويس دو بروي حمل على الاعتراف بجرأة بأنه استسلم طوال ربع قرن لهذا الاستبداد القائل باللاحتمية .

ونرجو ان يفهمنا القارىء حق الفهم ، فمن الخطأ الاعتقاد بأن كل فيلسوف او عالم يصوغ مثل هذه النظريات في المعرفة او الحرية يكون عازما متعمداً على خدمة مصالح الطبقة البورجوازية المنهارة ، فهذا لو حدث لكان عودة

الى مفهوم آلي للتاريخ ، ولكن ما هو صحيح ، هو ان كل فلسفة متجهة هذا الاتجاه ، فمن المؤكد انها ستحظى برضى الطبقة البورجوازية ، وتحظى بأقصى انتشار ممكن ، واعظم تكريم رسمي ، ويحدث هذا كائنا ما كان اتجاهها ، سواء تعلق الامور بالبرغسونية « اللاعقلانية » ، او بعقلانية « ألان » الزائفة ، او بوجودية غبريال مارسيال الكاثوليكية ، او بوجودية سارتر الملحدة .

على هذا النحو تستطيع البورجوازية ان تدعي مظاهر النزعة التحررية انها متسامحة ، بل انتقائية ازاء جميع العقائد التي تلبي المتطلبات الايديولوجيـــة للطبقة البورجوازية في مجموعهـــا ، يعني بالنسبة الى جميع العقائد التي يمكن ان تفيد في رفع سد ضد المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ، وبصورة اكثر شمولا ضد فكرة عالم موضوعي وتاريخ موضوعي .

ان كتاب علم ظاهرات الادراك الحسي لميرلو بونتي هو مؤلف نموذجي يلبي بصورة رائعـــة جميع اوامر الفكر البورجوازي ، فالمذبح الذاتي الفردي لعلم الاجتماع مدفوع في مؤلف ميرلوبونتي هذا الى حده الاقصى .

يقول المؤلف (ص ١٩٧) ، كذلك انا الذي اجعل الغير يكون بالنسبة الي .

اذن فليس ثمة - في نظر ميرلو بونتي - في عالم الطبيعي

او الاجتماعي شيء يمكن ان يكـــون له من معنى الا المعنى الذى اريد ان امنحه اياه . لن نجـــد فلسفة تقوم بشد ازر نظام وعهد محتضرين ، وتنعشهما كما تفعل هذه الفلسفة التي تعلم بان سير التاريخ قد توقف ، فهذا القلق هو اليوم قلق الطبقة البورجوازية بكاملها ، التي تخشى نهاية العالم ، ذلك لانها تسمع فعلا من كل جانب ، طقطقة عالمها الذي يتداعي وينهار .

انها تبتهج حين تسمع « فيلسوفا » يقول لهـــا قول ميرلو بونتي ويردد (ص ٤٩٦) . مرة أخرى نقول بدهي ان ليست ممكنة الفهم أية علاقة سببية بين الذات وجسدها ، او بينها وبين عالمها او مجتمعها .

بدهي ... يقول ميرلو بونتي : بدهي ... وهذا يعفيه من تقول البراهين ويجعل المادية خارج الساحة فيكفي – في زعمه – ان نردد غالباً هذا القول :

ان طريقة كويه (١) المطبقة عـــلى نظرية المعرفة والحرية ، انما هي العلاج الاخير لعالم محتضر ، ولمحاولة النجاة من اليأس ، يحتاج الى وسيلة للنجاة ، وهي ان يوهم نفسه بأن حالته ليست سيئة الى ذلك الحد الذي يبدو عليه .

وميرلو بونتي يخلق حقا فلسفة ليستعملها عالم معتوه ، شوه ، محتضر (٢) ، وهو يعترف بذلك بصورة مثيرة للفضول

(١) طريقة كويه طريقة في الايحاء الذاتي .

(٢) بسط ميرلو بونتي في خطابه الافتتاحي في (الكوليج دوفرانس) دور الفلسفة حيال التاريخ والحياة الاجتماعية فقال إنه « طاعة بدون احترام » .

في مطلع فصله عن الحرية : انا من ناحيتي لست لا حسوداً ولا أحدب ... وكثيراً ما يدهش الناس من ان المصاب بعاهة او المريض يستطيع ان يحتمل الحياة واذا يحتملان الحياة لانهما لا ينظران الى نفسيهما نظرة محتضر او مصاب بعاهة فحتى لحظة غيبوبة الموت ، يظن المحتضر حالا فيه وعى . انه جميع ما يراه . ان عنده هذه الوسيلة من وسائل الفرار ويتابع ميرلو بونتي (في الصفحة ذاتها) ، ان المصاب بعاهة او المحتضر لا يعيان حقيقة حالتيهما الا حين يأخذان عن نفسيهما نظرة موضوعية .

هذا هو السبب الذي كانت الموضوعية من اجله العدو الاول لعالم محتضر ، لما كان يسميه لينين « الرأسمالية المتعفنة » ولهذا السبب جميع ضروب اللاأدريه والمثالية الذاتية سواء تسمت (المذهب التفاهي) ، او المذهب الدولي ، او فلسفة الذرائع ، او الوضعية المنطقية ، او الحدسية او الوجودية ، او الظاهرانية ، تستشري كانها السرطان في جسم هذا النظام المنهار حتى لحظة غيبوبة لموت .. هذه الوسيلة من وسائل الفرار .

طبع الكتاب في
دار الطباعة العربية
بيروت - السور

obeikandl.com